

5 me Année, No. 232

Lundi - 13 - 12 - 1937

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر المالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ٢٣٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٠ شوال سنة ١٣٥٦ — ١٣ ديسمبر سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

الفهـــرس

ثورة على الأخلاق

معدة قرقرت ثم استقرت

للدكتور عبد الوهاب عزام

فأما صاحبك فقد ساءتنى حربه وسلمه . وهو فى سلمه أشد إساءة وأعظم جناية ؛ صوّرتَه لى غاضباً للأخلاق، راثياً للفضيلة، ثائراً على الناس ، يقذفهم بالتهم ، ويرميهم بالحُمَم ؛ يشتطّ فى غضبته ، ويغلو فى ثورته ، فقلتُ : حرّ غضب فأخطأ ، وكريم ثار فجار ، وأبىّ برّ أسخطته المذلة ، وهاجه الفجور ، فانطلق لا يقف عند حد . ثم صورتَه قنوعاً مستسلماً فقلتُ : واسوأتا ! أهذا المبطانَ جادلتُ ، وهذا الجبانَ نازلتُ ؟ لقـد كان جهاداً فى غير عدوّ . لم تكن شقشقة هدرت ثم قرت ، بل معدة قرقرت ثم استقرت . وما الشقاشق إلا لفحول الجمال ، وأشباههم من فحول الرجال

وأما أنت يا أخى الزيات فما أحسبك إلا شريك محمود فى رأيه ، أو صاحب وحيه ؛ قدمته للكلام ونطقت على لسانه ، وعرّضته للنضال ونزعت فى قوسه ، ولا أقول أقمته مقام الوثن من سادنه ، والصنم من كاهنه . فلما تبين أنه فى الخصام غير مبين ، وفى المآزق غير دفّاع ، وفى المعارك لا يثبت للمصاع ؛ رأنه لجوع يثيره ،

وشبع يُرضيه ، أبدلت به جماعة حسبتهم أقوَم بحجتك ، وأشدّ هيبة فى صدور خصومك فقلت : «على أن مجلسنا كان حافلاً بغير محمود من رجال العلم والدين والأدب ، وكلهم كانوا له وعليك » وأكبر ظنى أن هؤلاء (رجال العلم والدين والأدب) شركوا محموداً فى المائدة . وإلا فكيف جمعهم بمحمود المجلس وقد (قام منذ هنيهة عن مائدة الإفطار الفنية الشهية) ؟ والعجيب أن تذهب المائدة بثورة محمود وتثير سخط هؤلاء . ولعله كان أثبتهم على المائدة حملة ، وأطيشهم فى الصحاف يداً . ولعلهم آثروا القناعة ، واصطنعوا الحياء ، وتمسكوا بالأخلاق فحُرموا ، فكانت ثورتهم على الأخلاق

وبعد فموضع الخلاف بيننا هذه القضية : هل الخلق الفاضل سبيل النجاح ؟ قال محمود إبّان ثورته : لا ، وقلتُ : نعم نعم . وضربت مثلاً الصانع المُجيد ، الحسن المعاملة ، الصادق الوعد ، والتاجر الأمين المخلص ، والمزارع الأمين . ثم قلتُ : « ولا يزال الرجل الصادق الأمين فى كل جماعة وفى كل طائفة موضع المودة والثقة ؛ ينال بسيرته ما تقصرُ عنه ثروته ، إن استقرض أقرض ، وإن استعار أعير ، الخ » فبأىّ هـذا يرتاب أصحابك ؟ يقولون : ما أهون الأخلاق إن كان قصاراها هذا النجاح الحقير . ويقولون إن الذين ضربتهم مثلاً من الأخيار لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً من رجال المال والأعمال كفلان وفلان — وأنا ياصديقى ماخصصت بقولى ضرباً من النجاح دون ضرب . ولم يكن ذكرى التاجر والصانع والمزارع إلا مثلاً و « إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلاً مّا ، بعوضة فما فوقها » ولا أتمّ الآية إشفاقاً على أصحابك . إنى أقولها كلمة عامة شاملة : الخلق الفاضل ، فى أغلب الأحوال ، سبيل إلى النجاح فى كل طرائق الحياة ؛ إن أخفق حيناً نجح أحياناً ، وإن أكدى مرة أورى مراراً . فالحاكم الخيّر ، والرئيس البرّ ، والقائد الصالح ، والمؤلف الصادق ، والأديب النزيه ، والصانع والتاجر والزارع ، بل الموظف ، كل أولئك أقرب إلى النجح وأظفر بالطلبة فى أكثر الأحوال من أمثالهم من الأشرار ، بعد أن يتخذوا للمقاصد سُبُلها ، ويُعدّوا لكل أمر عُدّته . فإن قصّروا فى الأهبة ، وتوانوا فى اتخاذ العدة ، فماذا يجديهم الخلق وحده ؟ إن بعض الأخيار تجنبوا المعارك ، وأشفقوا من المهالك ، وضيعوا الحزم ، فلما أوفت بهم الأعمال على نتائجها التبس الأمر على كثير من الناس فحسبوا إخفاقهم بما استمسكوا بالحق والخلق الطيب ، وخالوا نجاح أضدادهم بما ركبوا إلى غاياتهم مراكب الباطل والرذيلة . فقل لهؤلاء : أعيدوا النظر ، وأحسنوا التفكير ، ولا تقصروا النجاح على المال فيجور بكم المنطق ؛ فهناك الكرامة والجاه والرياسة والزعامة ، وهناك الطاعة والمودة . وانظروا إلى الزعماء الذين يسوسون الأمم أهم من أصحاب المال ؟

وقلت فى مقالى السابق : إن للاخيار إلى مقاصدهم سبيلاً واحدة ، وللأشرار سُبلاً شتى ، ولكن هذه السبيل الواحدة أحرى بأن تؤدى إلى الغاية ، وتوفى على المطلوب . فقلت إن أصحابك يرون فى قالتى هذه نزوعاً إلى رأى محمود . ثم قلت : « ومادام جوهر الرأى واحداً فالسبيل القاصدة أن نطب لهذه الحال بما يوائم بين طموح الناس وكرامة الأخلاق وسلامة المجتمع » ثم قلت إنه لا معدى عن إحدى وسيلتين : أن تحمل الناس بالدين والسلطان على سبيل الحق الواحدة وذلك « خيال نبيل لا يقع فى الامكان » ، وإما أن نعيد النظر فى قانون الأخلاق ، وهذا « على مايرون مظنة التوفيق فى الاصلاح الجديد »

وجوابى أنه ليس فى كلامى نزوع إلى رأى محمود إلا أن تقطع المقدمات بعضها عن بعض ، ويفصل بين أول الحجة وآخرها . وأما الدعوة إلى إعادة النظر فى الأخلاق فأنا لم أعدُ فى مقالى جملة الأمر إلى تفصيله . لم أجادل عن خلق بعينه ، ولم أقل إن خلقا ما صالح لهذا الزمن أو غير صالح ، ولكنى قلت إن الأخلاق الفاضلة التى تتفق عليها أمة أو أمم لا تكون سبلا إلى الخيبة والحرمان . وإن أردت أن نعيد النظر فى الأخلاق فما أنا بمنكر أن الأخلاق تقبل بعض التغيير ، ولكنى لا إخال اعادة النظر ستغير تغييراً ذا بال فيما سارت عليه الأمم منذ هداها الوجدان والعقل إلى سبل الخير ؛ ولن تحلل هذه الإعادة رذائل كالكذب والسرقة والتزوير والظلم ، أو تحرم فضائل كالصدق والأمانة والعدل . ومهما تكن النتيجة فالأخلاق القديمة أو الجديدة لا تكون قرينة الخيبة والشقاء

وقد ذكرت أيها الأخ الكريم أخلاقاً تجعلها مثلاً لما تريد تغييره . ذكرت التواضع والقناعة والزهد والمداراة والتوكل .

(البقية على صفحة ٢٠٣٩)

هل الحرب ضرورة ؟

للأستاذ عباس محمود العقاد

جرئ من يقول إن الحرب ليست من ضرورات الطبيعة الإنسانية فى هـذا الزمن الذى قلما نسمع فيه إلا حديث حرب وخوفاً من حرب واستعداداً لحرب وبحثاً فى محالفات ومؤتمرات ليس الغرض منها إلا اتقاء العداوات والحروب

والواقع أن محاربة الحرب فى العصر الحاضر تحتاج إلى كل مافى الإنسان من شجاعة ، وكل ماعنده من رأى ، وكل ماينطوى عليه من سجية ، لأنه يحارب أقوى القوى متضافرات متشابكات : يحارب قوة المال وقوة السلاح وقوة الجهل وهى أقوى عناصر هذا الثالوث

وربما كان خير الميادين للغلبة على الحرب ميدان الثقافة وما يلحق به من ميدان التربية والتعليم . فإن التربية تصلح ما أفسدته التربية ، ثم تزيد فتصلح مالم تفسده قبل ذلك ، وهى على كل حال سلاح لا غنى عنه فى هـذا الميدان ، لأن وسائل السلم كلها لن تفيد فى تعويد الناس غير ما تعودوه ما بقيت تربيتهم وتثقيف عقولهم على الحال التى هى عليه

فى طليعة الكتاب المعنيين بفلسفة الحرب « الدوس هكسلى » حفيد العالم الانجليزى هكسلى الكبير

وهو وأقرانه فى هـذا الجهاد الإنسانى الشريف لا يبحثون عن الحرب بحث الصحف والأخبار والمؤتمرات والوزارات ، فإنهم يعتقدون وهم على حق فيما يعتقدون أن سياسة الأمم أعمق وأخفى وأعرق من هـذه الجوانب التى يتناولها السواس وتلغط بها صحف الأخبار ، ولكنهم يبحثون الطبيعة الإنسانية وينقبون فى تواريخ الأمم ليعرفوا منها ماهو طبيعى أصيل ، وما هو عرضى قابل للتهذيب والتبديل . ومعظم النابهين بين كتاب هذه الطائفة ينتهون إلى أن الحرب بدعة طارئة وليست ضرورة من ضرورات الطبيعة الإنسانية ولا قانوناً من قوانين الاجتماع ، وهذا هو الرأى الذى يلوح غريباً ممعناً فى الغرابة للذين سمعوا وطال سماعهم لقوانين تنازع البقاء وإرادة القوة وإرادة الحياة ، وحسبوا أن هذه القوانين ودوام الحرب معنيان مترادفان

كتاب « الغايات والوسائل » هو آخر كتب هكسلى فى هـذا العام ، وإن كان قد ردد فيه بعض الآراء التى شرحها فى كتبه السابقة منذ سنوات

وفصل الحرب فى هذا الكتاب من أبرع الفصول التى كتبها هذا الأديب اللوذعى المطلع القدير ، وهو الفصل الذى نلخصه فى هذا المقال ، ونعتقد أننا — نحن المصريين والشرقيين — خلقاء أن نبحث الحرب من هذه الناحية بعد أن طال حديثنا عنها من نواحيها العرضية التى تجئ وتذهب مع الأخبار ، بل لعلنا أحوج ما نكون إلى تدعيم بحوثنا كلها على هـذه الأسس وعلى هذه الأصول

يقول هكسلى ما خلاصته أن الحرب ظاهرة إنسانية لا وجود لها فى عالم الحيوان ، لأن الحيوان يتقاتل فى إبان الثورة الجنسية أو طلباً للطعام أو لهواً ولعباً فى قليل جداً من الأحايين ؛ وليس من الحرب بالبداهة أن يقتل الذئب الشاة أو تلعب الهرة بالفار ، فإنما هذا شبيه بعمل الجزار حين يقتل ما يطعمه الناس ، أو شبيه بعمل الصياد حين يتعقب الثعلب والأرنب

نعلم أن بعض علماء الحيـاة وعلى رأسهم السير أرثركيت يزعمون أن الحرب كالمنجل فى يد الطبيعة تقطع الفاسد وتبقى من أفراد الحضارة وشعوبها كل صالح للبقاء

ولـكن هذا كما هو ظاهر لغو فارغ ، لأن الحرب تقضى على الشبان والرجال الأشداء وتترك الضعفاء والشيوخ الذين لا يذهبون إلى الميدان . وقد دلت التجربة على أن أعنف الشعوب وأصلحهم للحرب لم يكونوا قط أفضل الشعوب وأرفعها فى مراتب الأخلاق والثقافة ، إذ ليس أنفس بنى الانسان وأغلاهم قيمة فى معيار الحضارة أوفاهم « نزعة حربية » وضراوة فى حومة القتال

وأوجز ما يقال فى هذا الصدد أن الحرب تختار الأفراد على طريقة عكسية فتفنى الأقوياء وتترك الضعفاء ، وأنها تختار الشعوب على سنة المصادفة والمناسبات الموقوتة ، فكثيراً ما تفنى الشعوب المقاتلة وتترك الشعوب الموادعة ، وكثيراً ما كان انطباع الأمة على الحرب طريقاً لها إلى الوبال والاستئصال

والذى يدل أكبر دلالة على أن الحرب ليست طبيعة فى الانسان ولا فى الاجتماع أنها لم تظهر فى التاريخ إلا بعد ظهور درجة من الحضارة ونوع من الحكومة ، فهى مجهولة بين قبائل « الأسكيمو » التى تسكن الأصقاع الشمالية حتى اليوم . وقد كانت مجهولة فى أطوار الانسانية الأولى فلم يعرف عن الانسان في تلك الأطوار أنه اتخذ السلاح للقتال وحب الغلب والسيادة ، وإنما كان يتخذ السلاح لدفع الضوارى أو لصيد بعض الحيوان

وصحيح أن « تنازع البقاء » قانون قائم فى عالم الانسان كما هو قائم فى عالم الحيوان ، ولكن من أين لنا أن تنازع البقاء مستلزم دوام الحرب كما ألفناها ونألفهـا فى الحضارات الغابرة والحاضرة ؟ ومتى شوهد الحيوان وهو يتجمع مئات وألوفاً ليقاتل بعضه بعضاً من فصيلة واحدة ؟ فليس في عالم الطبيعة كلها ظاهرة تشبه اجتماع جيش لمحاربة جيش آخر ، ولم يعلم قط أن قطيعاً من الذئاب احتشد للهجوم على قطيع مثله ، أو أن سرباً من الطير فعل مثل ذلك على سنة الآدميين فى الحروب

فالقول بأن الحرب قانون طبيعى قول لا يستند إلى أصل من الطبيعة الحيوانية فى حالى التفرد والاجتماع ، وإنما هو تفسير خاطئ لقانون صحيح

إن الآداب الأوربية قد شوهت الأخلاق حتى وهم الناس أن التضحية بالحياة أنبل ما يستطيعه الانسان ، وأن الشهيد أى الميت الحسن على زعمهم أفضل من الرجل العامل أى الحى الحسن . وعلى خلاف ذلك كانت آداب الشرقيين فى الهند والصين ، فعند اتباع كنفشيوس أن المغامرة بالحياة لا تليق ، وأن الحكمة أفضل من الشجاعة البدنية ، وأن العاملين فى السلم أفضل من العاملين فى القتال ، وأن الفضيلة العليا أن يحجم المرء عن الكبرياء والعدوان ويروض نفسه على الوداعة ومجازاة الاساءة بالاحسان

ولما جاء المسيح بدين الوداعة والمسالمة دخلت المسيحية بين شعوب أوربا المقاتلة فجعلوا « الاستشهاد » غاية الغايات فى النبل والفضيلة ، لأنهم هكذا ينظرون إليه فى الآداب العسكرية ، حتى التبست دعوة السلام بدعوة القتال

أما فى الهند فالحضارة البوذية تأبى العدوان على أحد من الأحياء وتوصى بمجاربة الشر بالكف عن مقابلته بمثله ، وهو ما يسمونه عندهم « أهمسا » أى اجتناب الأذى مع الأحياء كافة حتى ما يؤذيه الآخرون طلباً للطعام

وفى شرع البوذيين أن « الغضب » رذيلة دائماً وأن الإكراه محظور فى جميع الأحوال ، فشاعت البوذية وعمت بين مخالفيها دون أن تلجأ إلى اضطهاد أو جاسوسية أو محكمة تفتيش

وعلى هذا ، وعلى ماتقدم من نفى ضرورة الحرب ، يسوغ لنا أن نعتقد أن الدعوة إلى إلغاء الحروب ليست بالدعوة التى تقاوم مجرى الطبيعة أو تعارض تيار السنن التاريخية ، وأنه من الجائز أن يشيع السلام فى وقت من الأوقات ، وبخاصة فى العصور المقبلة القريبة بعد ما استفحل خطر الحرب وتعذرت النجاة منه على المسالمين فى البيوت والمقاتلين فى خطوط النار

* * *

واستطرد الكاتب إلى إجمال أسباب الحرب فقال ماخلاصته أنها أسباب نفسية قبل أن تكون اقتصادية أو سياسية كما يزعم الاشتراكيون ورجال السياسة ، وإن كان هذا لايمنع أن لها أسباباً اقتصادية تعالج بترياق غير ترياق الدماء

فمن أسباب الحرب الخوف ، فهو يدفع إلى الاستعداد ، والاستعداد يضطر الأمم إلى الحرب ، لأنه يهيء الأذهان لها بكثرة التوقع والشك فى إمكان اجتنابها ، وأحرى أن يكون ذلك فى العصور الحديثة والبلاد المتحضرة ، حيث أصبح السلاح عرضة للتغيير والبلى بعد قليل من السنوات ، فمن العسير أن تنفق الدول الملايين ثم تلقى بها فى التراب

ومن أسبابها شيوع الملل فى الحضارة إذ يشيع الكفر بالأمثلة العليا فتعود الحياة عبثاً ثقيلاً لاغرض له ولا وجهة ولا متعة فيها أمتع من الإهاجة واستفزاز الشعور ، والحرب تهيج النفوس فتدفع الملل والسآمة وتقل حوادث الانتحار كما ثبت من إحصاءات علماء النفس وفى طليعتهم دركيم وهلباش

ومن أسباب الحرب الحرب نفسها حين تهجم أمة على أمة أخرى لانتزاع موقع لازم للتحصين ودرء المخاوف واتقاء الهجوم

ومن أسبابها المجد الكاذب وطغيان الأقوياء وتحويل أنظار الشعوب فى الأزمات إلى ما يشغلها عن الثورة والانتقاض

ومن أسبابها التربية القائمة على الإفراط فى اتباع النظام

فإن الإفراط فى النظام ينشئ « العقلية العسكرية » ويجنى على استقلال الأفراد ، فتسهل قيادتهم إلى ما يريده القابضون على أعنة الأمور . ولو تربى الأطفال مستقلين لما استطاع القادة سوقهم إلى المجازر كما تساق الأنعام

أما الأسباب الاقتصادية والسياسية فهى دون ما تقدم فى القوة وصعوبة العلاج ، وسنعود إليها وإلى مناقشة آراء الكاتب فى غير هذا المقال

على أن الرأى الذى نود أن نختم به مقالنا هذا هو إصرار هكسلى على السخر بكل ما يقال عن الحروب التى تختم الحروب

فعنده أن التاريخ الإنسانى ليس « كرة أرضية » يخرج فيها الإنسان إلى اليابان فيلقى نفسه فى أقصى المغرب من طريق الشرق البعيد

إنما التاريخ الإنسانى خط مستقيم ، فإذا أردت أن تتقدم فيه إلى الغاء الحرب فلن تصل إلى وجهتك بالرجوع إلى الوراء

عباس محمود العقاد

القلب الغريب
فى ليلة عيد
للدكتور زكى مبارك

أخى الأستاذ الزيات

هل تذكر ما حدثتني به منذ سنين ؟ هل تذكر أنك تشهيت مرة أن توجه إلىّ خطاباً على صفحات البلاغ عنوانه « من غريب إلى غريب » وكنتَ الغريب فى بغداد وكنتُ الغريب فى باريس ؟

ولم تحدثنى عما أوحى إليك أن تفكر فى إنشاء ذلك الخطاب ، فهل أستطيع أن أرجح أن ذلك كان بعد أن نشرتُ أنا رسالة « من غربة إلى غربة بين القاهرة وباريس » تلك الرسالة التى فضحتُ بها مكتوم صدرى ومكنون هواى ؟

على أنني لن أكتب مثل تلك الرسالة مرة ثانية ، فقد انتهى عهد الغربة بالقاهرة ، وقضى الحب أن أشهد كيف تنهمر دموع الملاح يوم رحيلى إلى العراق

انتهى عهد الغربة بالقاهرة ، وحلّ عهد الاغتراب عن القاهرة ، فمن يردّنى إليها ليلة أو ليلتين لأقضى حق التحية ، تحية المغانى الآهلة التى كانت تتشوف إلى العيد ، لتراني مع العيد !

ليتك يا صديقى تعرف نعمة الله عليك فى بلد لك فيه أهلٌ وأحباب ، ولا أراك الله حسرتى وعذابى وأنا أتجرع كأس الغربة فى ليلة عيد !

ولكن هل من السياسة أن أعلن غربتى فى بغداد ، وقد لقيتُ فيها أهلاً بأهل وجيراناً بجيران ؟

إن قيل ذلك فأنا أعلن أنى لا أعانى غربة العقل ، وإنما أعانى غربة القلب

وكيف أعانى غربة العقل ومحاضراتي يشهدها المئات من عشاق العلم والبيان ، ولا أخطو خطوة إلا وأنا محوط بالعطف والإعجاب ، ولا أدخل نادياً إلا تلقانى أهله وسامروه بالترحيب والتبجيل ؟

ولكن هل يكتفى مثلى بحياة العقل ؟ يا ضيعة العمر إن كُتب علينا ألا نظفر بغير الثناء من عقلاء الرجال ! وما أضيق العيش إن كانت لا تلمع بروقه إلا من صرير القلم وسواد المداد !

إن الحياة العلمية ليست إلا خدعة يتلهى بها أرباب القلوب . وهل يخفى عليك ما يعانيه رجل مثلى حين يعود وحيداً إلى منزله بلا أنيس ولا رفيق ؟ هل يعزّيه حينذاك أن يتذكر أنه كان منذ لحظات يعاقر الفكر والرأى وهو يلقى محاضرته على جمهور من العلماء والأدباء ؟

ليتك ترانى وأنا أدخل إلى غرفتى شارد اللب فأزيح الستائر عن النوافذ ثم أطفئ المصباح لأقف وجهاً إلى وجه مع ظلام بغداد ، ويا رحمة الله من ظلام بغداد فى لياليها الطوال !

ولكن ما الذى يدعونى إلى معانقة الظلام فى بغداد ؟

لا أعرف ، ولكن يُخيّل إلىّ أن الظلام يؤنسنى بعض الايناس ، لأنه يوهمنى أنى فى فترة من الزمن تأنس فيها القلوب بالقلوب ، وتسكن الأرواح إلى الأرواح . وربما كان الظلام فى غرفتى فرصة طيبة أتبين فيها بصيص النور فى منزل قريب أو بعيد فأتمثل أخيلة النجوى والعتاب ، وأتوهم ضجيج المرح فى ليالى الوصال

***

أما بعد فهذا غروب اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان وهذا مكانى على المائدة فى المطعم الذى تخيرته بشارع الرشيد ، وهذه أطياف تردُ على القلب ، من أحباب القلب ، أطياف من مصر الجديدة والزمالك ، تلك البقاع التى لم تر فيها النجوم قلباً مثل قلبي ، ولم تُسدل ستائرها على هوى أعنف من هواى ... وليقُلْ من شاء ما شاء !

وأسأل جارى على المائدة : هل ثبتت الرؤيا ؟

فيجيب : سنعرف ذلك بعد ساعة أو ساعتين

وأخرج فأتصفح الوجوه فى شارع الرشيد بلا نفع ولا غناء ، ثم أميل على الشرطى أسأله :

هل ثبتت الرؤيا ؟

فيجيب : لم تثبت ، ولكن المحكمة تنتظر برقية من النجف

فأدمدم : برقية من النجف ؟ وهل يَسرُّ من فى النجف أن يفطر من فى بغداد ؟ إن كان الأمر لعلماء النجف فسيضيفون إلى الصوم يومين ، ولولا أن يفضحهم الهلال لزادوا الصوم أسبوعين

وأذهب إلى نادى المعارف لأسمر لحظات مع الزملاء من المدرسين فيفرحون بلقائي ويسألون : كيف غبت أمس ؟ فأجيب : غبت أمس لأحضر اليوم . ولكن حدثونى هل عندكم أخبار عن الهلال ؟ فيجيبون : سنعرف ذلك بعد الساعة العاشرة . فأقول : والشمس تغرب فى الخامسة ، فهل يمكن أن يكون بين الخامسة والعاشرة مجال لرؤية الهلال ؟

وبعد لحظة تُحوَّل إبرة المذياع إلى مصر فأسمع فتاة تُباغِم المستمعين فتقول : سادتى وسيداتى ، هذا آخر العهد برمضان !

فأقول : يا إخوانى ، ياحضرات الأساتذة ، يامسلمين يا أولاد الحلال ، هذه فى مصر ليلة العيد

فيجيب أحدهم وهو يبتسم : علمت شيئاً وغابت عنك أشياء . ألم تعلم أننا صمنا يوم الجمعة ، وصام المصريون يوم الخميس ، فهم حتماً يسبقوننا إلى العيد ؟

فأقول : من هنا تعلمون أن مصر تقدمت فى كل شيء ، فلها السبق فى الصوم ولها السبق فى العيد . وأنصرف محزون الفؤاد

***

هذه غرفتى موحشة لا يؤنسنى فيها غير أرواح الموتى من المؤلفين ، وسيكون الغد يوم عمل ، لأن يوم الوقفة لا عطلة فيه فى بغداد ، وإذن فسأعطي غداً درساً فى التفسير ، وهو درس متعب لأنه فى الكشاف ، وفى آية يختلف فيها أهل السنة مع أئمة الاعتزال

وكيف أُعدّ هذا الدرس ، ياربّاه ، وأنا أعرف أنها ليلة عيد فى مصر الجديدة وفى الزمالك ، وياويلتاه من لوعة القلب حين أتمثل مصر الجديدة والزمالك ؛ وغضبةُ الله على من تمرّ بباله خاطرة ملام وأنا أردّد أسماء تلك المغاني ، حرسها الله ، وأدام لأهلها نَضرة النعيم

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون »

قال جار الله الزمخشرى ...

هذه طلقة مدفع !

وقال ابن حجر فى الردّ عليه ...

وهذه طلقة ثانية !

وكيف نوفّق بين القولين ؟

وهذه طلقة ثالثة !

ولكن ما الساعة الآن ؟

الساعة العاشرة ! إذن ليست هذه مدافع السحور ولا مدافع الرفع ، وإنما هى مدافع العيد

***

وأطفأت المصباح ، وتلفتُّ إلى النافذة لأرى ظلام بغداد ، وقلت : هذه ليلة عيد بالإجماع ، فَلأُرحْ نفسى من الكشاف ، ولحاجة صاحب الكشاف ، ولأُقبل على قلبي أتبينُ ما فيه من فُطور ونُدوب

وتذكرت أننى كنت أكتب رسالة وجدانية فى كل ليلة عيد ، ثم انقطعت رسائلى بعد إذ مات أبى يرحمه الله ، لأننى أنفتُ أن أبكى بعده على غرض مُضَيَّع أو هوًى مفقود

ثم بدا لى فى هذه الليلة أن أبى لا يسره فى قبره أن تعيش مهجتى بلا لوعة ، ومقلتى بلا دمعة ، وكان يرحمه الله جذوةً من الوجدان

وعُدتُ إلى الظلام أستلهمه وأستوحيه فلم أجد من

أحاوره غير الرجل الحزين الذى اسمه أحمد ، أحمد حسن الزيات

صديقى !

هل تذكر فكاهتك الطريفة إذ تحدّث إخوانك أنك عرفتنى أول مرة عن طريق البوليس ؟ هل تذكر أن البوليس دعاك مرة إلى زيارة المحافظ فتوجست خيفة ، ثم رأيت أن الخطب هيِّن لأنك دُعيت لتتسلم رسالة من الشيخ زكى مبارك الذى اعتقلته السلطة العسكرية أيام الثورة المصرية ؟

ألا فلتعلم أن الحظ قضى عليك ألا تتلقى منى رسالة إلا فى ظروف تحيط بها شبهات ، فإن كانت الرسالة الأولى فى عهد ثورة فهذه أيضاً فى عهد ثورة ، وربما كانت هذه أعنف وأفظع لأنها تحدثك عن صديق حزين يناضل الأرق والسهاد فى ليلة عيد

صديقى !

لا تعجب من رجل يضنيه الحزن والابتئاس مع أنه ينهض بأثقل الأعباء ، فدنيا القلب غير دنيا العقل ، والشواغل الجسام لا تُلهى الرجل عما يساوره من لواذع الإحساس ، وأنا رجل يؤمن بأن القلب أدق ميزاناً من العقل ، وكيف لا يكون كذلك وهو يأخذ هدايته من الفطرة ، على حين لا يهتدى العقل إلا بالبراهين ، وهى فى الأغلب تقوم على مقدمات لا تخلو من تضليل

صديقى

هذه الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، وستقرأ هذه الرسالة فتذكر أنك أرقت فى ليلة العيد بلا سبب معروف ، فلتفهم حين تقرأ هذه الرسالة أن ذلك الأرق إنما كان هدية أرسلها إليك الغريب فى بغداد ، الغريب الذى يوحى الحزن إلى أشقياء الغرباء

والآن أطفىء المصباح لأعانق الظلام فى المدينة السحرية التى شقى بلياليها ملايين الرجال فلا أرى غير بصيص ضئيل لمصباح أقامته الحكومة على شاطىء دجلة ، فأفهم أنى أخاطب الأموات لأن مصابيح الحكومة لا تدل على شىء ، ولا يهتدى بها غير لصوص الجيوب

الآن تهدأ بغداد بعد أن تسدل أستارها على النافعين من السعداء والبائسين ، ويبقى المسهد الغريب الذى لا يعرف ربيع القلب ، ولا نعيم الجفون

فى هذه الليلة تهدأ جنوب ، وتقلق جنوب ، وجنبى هو الجنب الحائر تحت سماء بغداد

فى هذه الليلة تتلفت عيون فلا ترانى ، عيون كنت لها أمتع من إغفاءة الفجر ، وأنضر من بياض الصباح ، فى هذه الليلة تشتاقني أكبادٌ رقاقٌ علّمتها كيف تطيب ليالى الأعياد

ولكن لا بأس ، فسنعيش حتى نردّ ديون الهوى ، وسيعلم من أبكاهم الفراق أن الدمع لا ينفع ، وسنرجو ألا يسمحوا لنا بعد هذه المرة بالتعرف إلى محطة باب الحديد

أخى الأستاذ الزيات

لا أنتظر منك دمعة عند قراءة هذا الخطاب ، ولكن لى إليك رجاء ، فاحفظ عهد أخيك ولا تمش فى شوارع القاهرة إلا مشية الخاشعين ، فليس فى تلك المدينة بقعة إلا ولى فيها صَبَوات ، وليس فيها شارع ولا مشرب ولا نادٍ إلا ولي فيه أحباب وخُلاّن

ولو شئت لكلفتك تبليغ التحية إلى أصفياء القلب فى مصر الجديدة ، وفى الزمالك ، ولكنّ مثلك واأسفاه لا يؤتمن على نقل التحية إلى أسراب الملاح ، فلتكن (الرسالة) رسولى إلى من أذالوا غاليات الدموع يوم رحيلى إلى العراق ، والسلام عليهم وعليك من الغريب الحزين

زكى مبارك

جاءنا الفصل الثانى من فصول الأستاذ المبارك فى (ليلى المريضة بالعراق) ولكننا قدمنا عليه هذه الرسالة الطريفة فى النشر حتى لا تفوت مناسبتها

« الرسالة »

حرق الميت

العرب أول من أعلن (بقاء المادة)

Conservation de la matière

لأستاذ جليل

وصّى (مكدونالد) الانجليزى الاسكتلندى من رؤساء الوزراء السابقين فى بلاد البريطانيين قومه أن يحرقوه إذا هلك فاحرقوه فى هذا اليوم. وحرقُ الميت طريقة هندية برهمية، وقد زينها (المعرى) فى (اللزوميات) للناس، فقال الخبيث — جزاه الله جزاءه —:

فاعجب لتحريق أهل الهند ميتهم
وذاك أروح من طول التباريح
إن حرّقوه فما يخشون من ضبع
تسري إليه ولا خَـفْى وتطريح[1]
والنار أطيب من كافور ميتنا
غبّا وأذهب للنكراء والريح[2]

ومن أجل هذا وغيره اتهم الرجل بالتبرهم، ففي (لسان الميزان) لابن حجر: «من عجيب رأى أبي العلاء تركه كل ما كول لا تنبته الأرض شفقة على الحيوانات حتى نسب إلى التبرهم»

والبرهمي يتقرب بالحرق إلى الله. وقد يحرق بعضهم نفسه (جسمه) بنفسه وهو حى متفنناً فى إحراقه، فقد قال (البديع) فى إحدى رسائله:

«وربما عمد أحدهم — يعنى الهنود — فاتخذ لرأسه من الطين إكليلا، ثم قوّر قحفه[3] فحشاه فتيلاً، ثم أضرم فى الفتيل ناراً ولم يتأوه، والنار تحطمه عضواً فعضوا»

وغير البرهمى إنما يفر بالحرق من الله — وهل من الله (يا غر) مفر — ففى (الفائق) للزمخشرى: «أن رجلا رَغَسَه[4] الله

(١) خفى الشىء الخفى واختفاه: أخرجه (الأساس) المختفى النباش لاستخراجه أكفان الموتى (اللسان)

(٢) النكراء: النكر، المنكر، الشدة، وربما أراد (النكرة) وهى مايخرج من الخراج من دم أو قيح كالصديد

(٣) القحف: العظم فوق الدماغ

(٤) رغسه الله مالا وولداً: أكثر له منهما وبارك له فيهما، والرغس السعة في النعمة والبركة والنماء (النهاية) وحق (مالا وولداً) أن يكون انتصابهما على التميز (الزمخشرى).

مالا وولداً حتى ذهب عصر وجاء عصر، فلما حضرته الوفاة قال: أى بنِىّ، أىّ أب كنت لكم؟

قالوا: خيرَ أب

قال: فهل أنتم مطيعىّ؟

قالوا: نعم

قال: إذا مت فحرقونى حتى تدعونى فحما، ثم اهرسونى بالمهراس، ثم اذرونى فى البحر فى يوم ريح، لعلى أضلّ الله[1]»

وهيهات أن يضلّ الله، أن يفوت الله هارب من عذابه «أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا، ساء ما يحكمون»

وهيهات أن يضمحل فى الوجود شىء؛ إن (الكتاب) يقول: «أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً، إن الله على كل شىء قدير» «يا بُنَىّ إن تكُ مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير»

والعِلْم العربى قد أعلن (بقاء المادة) ونادى أن لا تلاشي[2] للأشياء. قال عبد الحميد بن هبة الله فى كتاب شرحه لنهج البلاغة: «إنا نرى الحيوانات الميتة إذا دفنت فى الأرض تنقص أجسامها، وكذلك الأشجار المدفونة فى الأرض؛ على أن التحقيق أن المحترق بالنار والبالى بالتراب لم تعدم أجزاؤه، وإنما استحالت إلى صور أخرى»

ذلك قول الله، وقوله الحق. وهذا قول العلم العربى المثبت بالعلم الغربى[3] فلن يضل الله محروق أو غريق أو مُفَرْفَر[4] فى الغيل ما كول، ولن يضيع فى العالم ضائع، ولن يعدم فى الوجود كائن. إن الطبيعة خزانة الله حافظة أمينة «وكان الله بكل شىء محيطا»

«فويلٌ للذين ظلموا من عذاب يوم أليم»

الاسكندرية (***)

(١) أضل الله: أفوته ويخفى عليه مكانى (النهاية) ضلنى فلان فلم أقدر عليه أى ذهب عنى (الزمخشرى)

(٢) تلاشى الشىء: اضمحل (التاج) واللفظة مولدة، وهى من (لاشىء) والتلاشى فى كلام العلماء والأدباء من المولدين لكثير، وفى (نهج البلاغة): «وما تلاشت عنه بروق الغمام»

(٣) أظهر (Lavoisier) مقالته فى (بقاء المادة) منذ (١٤٨) سنة وابن أبي الحديد توفى سنة (٦٥٦) أى منذ (٧٠٠) سنة

(٤) فرفره: مزقه، والفرافر الأسد لتمزيقه الفريسة

فلسفة التربيــــة

كما يراها فلاسفة الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٣ —

« خلق الله تعالى الانسان وأودعه بذرة كماله المنشود ، ثم تركه للعلم ينمي فيه هـذه البذرة حتى إذا ما اشتد ساعده واصل تربية نفسه بنفسه محققاً إرادة السماء »

Kant, « Traité de Pedagogie »

بينت في المقال السابق ما بين الفلسفة والتربية من علاقة ، وذكرت فحوى فلسفة التربية الحديثة لدى جون ديوى ومدرسته وسأتناول فى هذا المقال معنى التربية وضرورتها وقدرتها :

أما معناها فكان وما زال موضع خلاف فى التصور والتعبير ، فمثلاً دائرة معارف Chambet تقول : « إن كل شيء يعلم الإنسان وإن التربية على الخصوص هى صب الأطفال فى قالب خاص » (أنظر A Source Book of Education فصل كيف نتصور التربية) ، ويقول Stein : « التربية تطور متناسق للملكات يتفق وطبيعة العقل » ؛ هذا بينما يقول بستالوتزى : « كل عمل المعلم هو أن يمنع ما يعرقل طبيعة الناشىء حتى تستطيع أن تنمو نمواً طبيعياً على مثال صورة الله تعالى » ، وبينما يقول ديوى : « التربية هي الأسلوب الذى يصير المرء في امتلاك متواصـل متزايد لنفسه ولقواه ، بواسطة الاشتراك المتواصل المتزايد فى أعمال الجنس »

هذا ويعلل لنا الأستاذ أمين مرسى قنديل عدم الاتفاق على تعريف جامع مانع للتربية بقوله : « التربيـة من حيث هى علم لم يستقر بعد ، فهي لا تزال في دور التحول والتكوين » (أنظر أصول التربية والتعليم جـ ٢ ص ٣٥)

ومهما يكن من شيء فالأستاذ هورن Horn يفهم التربية على نحوين : نحو عام هو تلك « العملية » الطويلة الهائلة التى يتعلم فيها الجنس البشرى تحت رعاية ذلك « الروح الأبدى » المتجلى فى الطبيعة والانسان ؛ ونحو خاص هو « عملية » المدرسة منذ روضة الأطفال إلى نهاية المدرسة العليا . ولذلك كانت دراسة التربية من حيث معناها العام دراسة للمدنية بأجمعها ، ودراستها من حيث معناها الخاص دراسة لتاريخها ومثلها الأعلى وفنها العملي وفلسفتها (انظر A Philos. of Educ)

هذا عن معناها . وأما ضرورتها فها هو «هربارت» يقول : «إنها (أى التربية) مهمة دينية ورسالة مقدسة !» وهاهو «كانت» يزعم « أن الانسان لايصير إنساناً إلا بهـا » ! ! ولاشك أنا نستطيع أن نلمس ضرورتها فى نواح عديدة أهمها الثلاث الآتية :

١ — الناحية النفسية

ذلك أنا إذا أخـذنا طفل « الرجل المتمدن » وألقيناه فى إحدى الغابات ، وفرضنا أن الطبيعة سترعاه حتى يستطيع أن يطعم نفسه ويدافع عنها ، لوجدنا أن نشأته بين الأشجار ستكون بدائية (١) بحتة ترجع بالانسانية آلاف السنين إلى الوراء

وكذلك قد لوحظ أن الطفل الاسكتلندى الأصل إذاما انتقل إلى الوسط الفرنسى تغير كثيراً وأضحى غير زملائه في وسطه الأول

ومعنى هذا أن الوراثة الاجتماعية تعدل فى الوراثة البيولوجية تعديلا خطيراً . ومادام الأمر كذلك فمجال « الإمكان » فى التربية إذن فسيح ، ومجال سلطانها على مستقبل الناشىء ، بل والعالم كله ، من حيث السعادة والشقاء ، والتقدم والتأخر ، إذن عظيم وخطير ! يؤيد ذلك قول توررندايك فى The Educ Psycho « إن التربية أعظم مساعد للناس جميعاً على تحقيق خيرهم المطلق » وقول الأستاذ آدم سميث فى The Wealth of Nat « إن الفرق فى كثير من الأحيان بين الفيلسوف ورجل الشارع ناشىء فى العادة من التربية أكثر مما هو ناشىء من الطبيعة » ، وقول هيوم « هما المران والممارسة ينشئان العامل الماهر »

بل إن البعض ليذهب إلى أكثر من ذلك ، فهم يدعون أن علم الوراثة سيستطيع أن يقدم للتربية فى الغد ما يمكنها من « خلق » العقل والجسم المنشودين !!

٢ — الناحية الاجتماعية

والانسان فضلا عما تقدم كائن اجتماعى . ولما كانت الحياة في ذاتها نمو وتطور وتجدد كانت التربيـة هي الاداة الفعالة التى

(١) Primitive

يستطيع المجتمع أن يحفظ بها كيانه ويجدد نفسه . وكلما تعقدت أساليب الحياة في المجتمع احتيج إلى تربية نظامية دقيقة ، والأفراد يموتون ولكن الجماعة تبقى ! ، والصغير محتاج — كيما يواصل حياة الجماعة فيما بعد — إلى أن يأخذ من الكبير الذي سيموت تاركاً له التراث الأكبر ! ، فيجب إذن « ترقيع » الجماعة دائماً ! وإلا فلا يجد الصغير درعاً يساعده على البقاء ! ومعنى هذا أن التربيـة في الجماعات المتمدنة قد أصبحت تقوم مقام الصلاحية للبقاء في الحيوانات والجماعات المتوحشة !

زد على هذا أن الجماعة لكيما تكون وحدة ناجحة سليمة يجب أن تتحد فى المطامح والعقائد والفهم العام . وليس كالتربية وسيلة لتحقيق مثل تلك الوحدة الناجحة . ذلك أنها ترتب الميول المراد تنميتها وتساعد عملية النمو ؛ كما أنها تطهر وترفع مستوى العادات الاجتماعية القائمة ؛ وتوجد بيئة متوازنة ، هى المدرسة ، تمد الطفل لمواجهة البيئة الكبرى ...

٣ — ناحية النمو

ويقول السير جون آدمز إن أغلب تعاريف التربية تحوى معني النمو . فكومنيوس وبستالوتزى مثلاً يتفقان فى أن العقل كالبذرة ينمو من الداخل . والحق أن الحياة فى الفرد وفى المجتمع وفى تاريخ الكائنات جميعاً ليست إلا عملية نمو هائلة متسلسلة ينطق بها لسان التطور ؛ ويحتاج النمو الصالح إلى مرونة تجدها التربية فى الطفولة والشباب . وبهذه المرونة نتعلم من التجربة ونكتسب العادات الآلية التى تضمن لنا السيطرة على الطبيعة ، وحسن التكيف فى الموقف الجديد ، والاختراع والابتكار والخلق والإبداع .

وما دام الأمر أمر نمو فإن المدرسة الحديثة تعارض فكرة الإعداد « للغد فحسب » كل المعارضة حتى لاتصرف المتعلم عن فرصة الحياة الحاضرة بما فيها من ميزات

يقول « ديوى » في « المدرسة والاجتماع ترجمة الأستاذ قندلفت » : « لايتاح لأمة أن تنى حق الأمانة لنفسها إلا بأن تكون أمينة على إنماء أفرادها التى تتألف منها . ولا عامل كالمدرسة ينيلها ماتريد »

***

بقى بعد ذلك أن نتكلم عن قدرة التربية كما أشرنا إلى ذلك من قبل . والحق أننا نستطيع أن نتحدث هنا دون أى حرج . وها هو ذا إرازمس E,rasmus يقول إنه لو سيطر على التربية بضع سنوات لغير الدنيا . وبسمارك يردد : « إن من يدير المدرسة يوجه مستقبل الأمة ... » وقديماً حاول إفلاطون أن يخلق المدينـة السعيدة الفاضلة بالتربيـة . وحديثاً يسود الانجليز ويستمدون عظمتهم من تربيتهم لا من جيوشهم وأساطيلهم .

وأخيراً إذا كان العالم يسير اليوم متشائماً نحو الحرب والدمار فلأنه قد نشأ نفسه وأسفاه على أساس من تربيـة فلسفتها البقاء للأصلح ، وقوامها الوطنية الكليلة والقومية الحمقاء !!! ؟

لذلك كله يرجو دعاة السلام والاصلاح من التربيـة خيراً جزيلا ؛ ويحاولون جهدهم أن يستغلوا « امكانات » علم النفس في تعديل الغرائز وتهذيبها والتسامى بها أيما استغلال ، ولكنهم يشعرون — وأشعر معهم — أنهم لا يزالون بعد في حاجة قصوى إلى إقناع الساسة والشعوب بفلسفتهم الجديدة القائمة على أن العالم هو الوطن الأكبر ، وعلى أن الانسانية في التعاون والتعاضد والبناء والتشييد ، لا في التنابذ والتحاسد والتخريب والتدمير ..!!

فهل يستطيعون لهـذا الاقناع سبيلا وأبواق الحرب تهرف في كل مكان بدعاية مجنونة ، ورجال السلاح ينفثون سمومهم وأحقادهم ومطامعهم في نفوس بريئة لا تملك النقد ولا تعرفه ؟؟

وكيف السبيل لذلك الاقناع ورجال الحرب يسيطرون على الحكومات ويوجهون برامج التعليم إلى حيث تتحقق فلسفتهم الجوفاء ؟؟

ومصر في عصرها الديموقراطى المستقل الراهن أترى للتربية فيها فلسفة ناجحة ؟ ؟ وإذا كان لها فلسفة ما : أفلا تتطلب هذه الفلسفة تعديلا يلتئم وحاجات العصر الجديد من ناحية ، ويتمشى وحقائق علوم التربية الحديثة من ناحية أخرى ؟ ؟

ذلك ما أدعوك للتفكير فيـه أيها القارئ العزيز على ضوء الحقائق التى ذكرتها وسأذكرها ؛ وما أعدك بتناوله بعد الفراغ من هذا الموضوع

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

مجادلة طريفة واقعة حول

معجزات الاســـلام

للأستاذ خليل جمعة الطوال

للأستاذ خليل جمعة الطوال

هل تطلبون من المختار معجزة يكفيه شعب من الاجداث أحياه
وكيف ساس رعاة الابل مملكة ما ساسها قيصر من قبل أو شاه
(غنيم)

استويتُ إلى مكتبي المتواضع، وفي النية أن أكتب فصلاً «للرسالة الغراء» عن نخاسة الأعراض وتجارة الزواج في شرق الأردن؛ وفيما أنا أفكر في عناصر الموضوع، وطريقة الدخول اليه وأستجمع له الخواطر الشاردة، والأفكار الطافية فوق هموم العيش والإفلاس، إذ بطارق يقرع عليّ الباب ثلاث قرعات متوالية، ثم يقتحم الغرفة بدون استئذان، ويجلس بالقرب مني على مقعد خشبي قديم، أشبه ما يكون بمقاعد مقهى المتالين في باب العامود. وكانت بادرة الفكر أن أحوله عن هذا المقعد الوضيع الذي لا يتفق ومكانة الزوار، ولكنه تشدد علي وأبى إلا أن يلازم مكانه الذي ظل جالساً فيه وكأنما يستجمع قواه ليقفز

كان طوالاً أجنأ، ياسرَ الوجهِ، أثرمَ الثنية اليسرى، متغطرفاً وعواعاً، قد تفشّغ الشيب في لمته وذقنه الحليق، توضحتهُ فتبينت في أسارير وجهه قصة طويلة، إلا أنها خفيّةُ المعنى، عديمة الإبانة، غامضة الإشارة، فألقيت عليه تحية المساء، ثم سكتُّ علّه يبدأ الحديث، ولكنه ظلّ مُبرطما، ينكث السجادة بعصاه دون أن ينبس ببنت شفة، فتهمتُ كمادتي؛ فخدجني بنظرة شزرة حسبت فيها سخط الإنس والجن، ثم أخذ يتثاءب ويتمطى، فكأنما كان يحمل حملاً ثقيلاً أزيح عنه بالتثاؤب، إذ انبسطت أسارير وجهه، وزال برطامه، ولكنه ظل مع ذلك مطرقاً لا يتكلم؛ فاستثقلتُ جلستهُ — كما قد يستثقل القارئ هذا الحديث — وقلت لنفسي لا بدّ من أن أستدرجهُ إلى الحديث وإلا فهذا المجلس المكروه إن طال سيضيّق عطني، ويستفز كامن عصبيتي، فاهتبلت فرصة تثاؤبه وابتدرته بالحديث قائلاً:

— الحمد لله على سلامة الشيخ

— وهل يعرف المتعلمُ رباً فيحمده؟ ... أنت ملحد ... كافر ... درزي لا دين لك

— (فتذكرت الحكمة القائلة: داروا سفهاءكم) درزي...! أليس للدرزي دين ... ! يا شيخ كيف تتهمني بالكفر؟

— كيف أكفرك ... ! ألست مسيحيًّا أباً عن جد؟

— بلى! وليت ذلك لم يكن؛ إذن لكنت حرًّا في نوع صوفيتي مع الله؟ وفي تكوين عقيدتي بالله ... !

— أفلا تعتقد بقول المسيح: من ليس معي فهو عليّ؛ وبقوله يخاطب الكهنة: من سمع منكم فقد سمع مني، ومن احتقركم فقد احتقرني؟ ثم ألست الزاعم بأن الإكليروس هم إنكشارية الدين المأجورون؟ وذلك نصرة لبدعة فاسدة ادعاها رجل كاذب يدعى محمد. قل لي هل يستوي النور والظلام؟

— لا . لا يستويان

— فكيف إذن تجمع بين المسيح — الذي هو طريق الحق والحياة — ومحمد؟ وكيف تدافع عن محمد وأنت من جند المسيح؟

— يا سيدي! ... قل لي، أمن الإيمان أن تمتهن بقية العقائد؟ .. ثم ما رأيك في الشريعة الموسوية؟ .. أليست — في حكمك — شريعة كاذبة لأنها ليست من تشريع المسيح؟ .. وهل كان الرسل لينسخ اللاحق منهم شريعة السابق أم ليكملها؟ وهل فاتك قول المسيح ما جئت لأنقض بل لأتمم؟ .. فموسى ومحمد إذن حكمهما من حيث الصدق والكذب واحد

— حاشا! حاشا أن أعتقد ذلك. فشتان بين موسى كليم الله الذي أنقذ أمته، وجعل العصا في يد فرعون حية، وأخرج من الصخر الأصم مياهاً نقية، وبين محمد — نبيك — الذي لم تؤثر عنه مكرمة، ولا سمعت له معجزة

— وأية مكرمة أفضل من إخراج محمد قومه من حظيرة الشرك إلى حظيرة التوحيد؟

— ليته لم يفعل ذلك. إذن لسهل على المسيحية أن ترد هذه الخراف الضالة إلى قطيعها

— ولم لا تردها الآن ما دامت ضالة عن القطيع! ...

— هيهات ذلك، هيهات أن يفلت الحمل من مخلب الذئب

— بل هيهات أن يسلم الذئب من رصاصة الراعى وعصاه ، وأن يصل الباطل إلى قمة الحق وذراها . والآن دعنا نحسم هذا الجدل المنيف ، وقل لى ما الذى تشترطه على محمد لتتم له النبوة ؟

— الأمر واضح فلا نبوة بغير معجزة

— وأنا معك فى ذلك ، وإلا لادعى النبوة كل مشعوذ ، ولصار الناس جميعهم أنبياء . والآن أعرنى سمعك لأبين لك معجزة الاسلام

لقد كان العرب فى جاهليتهم يعبدون إما الأصنام التى كانوا يقيمونها من بعض الحجارة والمعادن ، وإما بعض مظاهر الطبيعة المتعددة ، كالشمس ، والهواء ، والبحر ، والسماء ، ولكن العربى المتبدى لم يكن يقدم لآلهته هذه التى راح يلتجىء إليها كلما حز به أمر ، أو داهمه خطر ، الذبائح والقرابين ، ولا كان يقيم لها الشعائر الدينية والمراسيم ، كما كان يفعل الأشوريون والفينيقيون ومن إليهم ، بل لم يكن يتحرج عن إهانتها وتحطيمها ولاسيما إذا استقسم عندها بأقداحه تخرج منها مايكره — كما فعل امرؤ القيس بن حجر الكندى — ذلك لأن العربى فى الجاهلية كان قلما يهتم بما وراء الطبيعة

ولقد تسربت اليهودية والمسيحية إلى جزيرة العرب فارتدتا عنها بالاخفاق والفشل ، ذلك لأن أحلام الأولى وآمالها ، وأسرار الثانية ومعمياتها ؛ فمن إله متأنس ، إلى رب مصلوب ، إلى أقانيم ثلاثة بجوهر واحد ، إلى استحالة الخبز والخمر إلى جسد ودم ؛ كانت جميعها مما ينفر منها الطبع البدوى الساذج ، أما الاسلام وإن اصطدم بالمنجهية العربية ، وتصارع مع وثنية البادية حيناً من الدهر ، فإنه تمكن أخيراً من أن يظهر عليهما بالنصر ، ذلك لأنه دين يتساوق مع العقل والقلب ، ويسوى بين الدين والدنيا ، ويجعل الفقير بذمة الثرى ، فهو فى حقيقته مجموعة قواعد خلقية سامية ، ومبادىء اجتماعية مثلى ، وهل الدين فى حقيقته إلا إصلاح النفس والأخلاق فى الفرد ، وإقامة الفضيلة واجتثاث السوءآت فى المجتمع ؟

ولئن كانت معجزة موسى أن حول العصا أمام فرعون حية ، لقد كانت معجزة الاسلام أبلغ منها ، ذلك لأنه حول مادية النفسية البدوية الضارية التى طبعت على حب الغزو والنهب ، وعلى استباحة المنكرات إلى شعلة روحية تشع فى أرجاء الكون بنور المبادىء العالية ، والفضائل السامية

ولِمَ نذهب بعيداً فى الاستدلال ؟ وهذا البدوى الجلف ، الذى كان بالأمس ينفر من ظل الدين ، ويستحل جميع أنواع المنكرات ، ولا يتحرج من سفك الدماء البريئة باسم مجد القبيلة وجاهها ، تثخنه اليوم باسم الدين والتوحيد أسنة المشركين فى أحد جراحاً ما زالت تثعب دماً ، وتمزق إهابه نبال الفرس فى القادسية وقسى الروم فى اليرموك ، فيستقبلها بصدر عامر بالإيمان ، ويستمرئ آلامها غير جزع ولا هياب ، ذلك لأن معجزة الإسلام أخرجت نفسه من حدود هذا العالم المادى الضيق الذى يتعين بجهات الأرض الأربع ، إلى عالم روحى فسيح يتعين بعقيدة التوحيد ، وبحدودها الأربعة : التى هى : التقوى فى الدين والحرية ، والإخاء ، والمساواة فى الدنيا

ولئن كان فتى الجزيرة قبل الإسلام راعى إبل وغنم ، تختلف عنقه بين نيرى الفرس والروم وتصعِّر خدَّه أيدى الغزاة الطامعين من بقية الشعوب ، فإنه اليوم بفضل المعجزة الكبرى التى تزحزح لإشراقها أسّ الإيوان ، وانصهر من حرارتها التاج والصولجان ، قد فتح ثلثى الكرة الأرضية فى أقل من ثلثى قرن . فهذا خالد بن الوليد الذى لم ينهزم قط فى حياته يفتح دمشق ، وهذا عمرو بن العاص يوغل فى الديار المصرية ، وهذا طارق بن زياد يعبر المضيق الذى لايزال يحمل اسمه حتى اليوم ، يريد أن ينفذ من الشطوط الأسبانية إلى سفوح جبال البرينيه ثم إلى غسقونيا وبوردو . وهذا موسى بن نصير يسرح بخيول مضر وعدنان فى شرق الأندلس وغربها ؛ فى قرطبة وطليطلة ، وأشبيلة ، وقادس ، وغرناطة ، وغيرها

ثم انظر إلى هذا الفتى الذى لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر بعد ، كيف اخترق السند وظل ممعناً بفتوحاته ، حتى أدخل الهند ضمن الامبراطورية الاسلامية . أليس بفضل معجزات الإسلام يربط هذا الفتى « تورس » غرب باريس بحر الهند على ما بينهما من الشقة الواسعة والمسافة النائية ؟

أفلا يعد معجزة فى الإسلام أن يضاهى عصر المأمون فى بغداد عصر بركليس فى أثينة ، وعصر النـاصر فى الأندلس عصر أغسطس فى رومية ؟ ونحن الذين كنا بالأمس نرعى الإبل والشاء ونأكل الضِباب والعظاة

انظر إلى ما يقوله فينا « غوستاف لوبون » فى كتابه La psychologie Politique « زعم المؤرخون أن التأثيرات العلمية والأخلاقية العجيبة التى أثرها المسلمون فى العالم كانت بفضل مادياتهم ، ولكن لا يصح اليوم أن نجهل ان هذه المؤثرات قد دامت فى مجراها حتى بعد أن أضاع المسلمون مادياتهم ونفوذهم السياسى ، فإن المسلمين فى الصين يزيدون على عشرين مليوناً ، وفى الهند على خمسين ، ولا يزال هذا العدد فى نمو ، وإن المسلمين بعد الرومان هم الأمة المدنة الوحيدة التى نجحت فى نقل تهذيبها الاجتماعى ودينها وأوضاعها وعلومها إلى العناصر المختلفة التى افتتحتها وتسربت بينها . هذه التأثيرات لا تضمحل بل على العكس نراها آخذة فى النمو ، تتعدى الحدود التى بلغتها فى أيام القوة المادية .

إن القرآن وما اشتق منه هو إلى الفطرة بحيث يلتئم مع حاجات الناس الأولية ، حتى أن قبوله آخذ حكمه على مر الدهور لا يعوقه عائق ؛ وحيث ينزل المسلمون ، ولو كانوا تجاراً سذجاً ، تتدخل أوضاعهم ومعتقداتهم . وكلما توغل الرواد من أهل المدنية الحديثة فى صميم أفريقية شاهدوا قبائل تنتحل الإسلام . والمسلمون الآن يمدنون قبائل أفريقية على نحو ما يستطيعون ويجاهدون فى تلك القارة الغريبـة ، على حين يطوف الأوربيون فى الشرق فاتحين كانوا أو متجرين ولا يتركون وراءهم أثراً لنفوذ أدبى

أفبعد هـذه الشهادة تطلب من الإسلام معجزة وله فى سجل التاريخ مثل هذه الصفحة الرائعة المجيدة ؟

(شرق الاردن) خليل جمعة الطوال

العـــدد ١٨٣

أعدنا طبع العدد ١٨٣ من الرسالة ، فمن لم يكن عنده من حضرات المشتركين فليتفضل بطلبه من الادارة

أثر حروب محمـــد على
فى الأدبى الألمـــانى والفرنسى

للأديب السودانى المبارك ابراهيم

لم يكد يتولى محمد على الكبير حكم القطر المصرى باسم الدولة العلية ، فى أوائل القرن التاسع عشر ، حتى بات يتحين الفرص لبسط ظله على الأقطار المجاورة . ففى عام ١٨١٨ م انتصر على الوهابيين فى الأراضى الحجازية . وفى عام ١٨٢١ م وحد بين شطرى وادى النيل بضم السودان لمصر ، وفى عام ١٨٣٢ م كانت بلاد الشام تدين بالطاعة والولاء لمحمد على

وعند ما توترت العلاقات بينه وبين حكومة الباب العالى سير جيوشه ليغزو تركيا ويخضعها لسلطانه ، بدلا من أن يظل هو خاضعاً لسلطانها ! ففى ديسمبر ١٨٣٢ هزمت الجيوش المصرية الجيوش التركية هزيمة منكرة ، وباتت على مسير بضعة أيام من استامبول عاصمة سلاطين آل عثمان !

لقد كان طموح محمد على إلى السيطرة والحكم لا يقف عند حد ، إذ كان يتوق إلى إنشاء امبراطورية مصرية مترامية الأطراف لا تغيب عنها الشمس !

على أن هذا التوسع الاستعمارى من جانب محمد على لم يرق الأسـد البريطانى ، فوقف فى طريق محمـد على يزمجر غاضباً ويكشر عن أنيابه ويلوح بذيله ! وتحت ضغط الظروف القاهرة اضطرت جيوش محمـد أن تنسحب من الأراضى التركية قبل أن يهاجمها هذا الليث الانجليزى الهصور ، وغيره من دول أوروبا التى لا يرضيها تقـدم الحكام الشرقيين فى الميادين السياسية والحربية ، وبهذا التدخل من قبل الدول الأوروبية ، بات الرجل المريض « تركيا » فى مأمن من مداهمة محمد على له والإجهاز عليه لأن هـذه الدول الأوربية كانت تطمح فى الاستيلاء على تركة الرجل المريض « الأراضى التركية » واقتسامها فيما بينها . وقد وضعت هذه الدول أيديها فعـلا على معظم هذه الأملاك التركية

وفى عام ١٨٤٠ م أبرم الأسد البريطانى ، والدب الروسى ، والنسر البروسى ، اتفاقية سياسية تدعى اتفاقية لندن ،

فكان فيها القضاء المبرم على الامبراطورية المصرية التي كان يحلم بانشائها ذلك الحاكم الشرقي العصامي العظيم محمد علي. إذ تسرته هذه الاتفاقية التي تآمرت فيها هذه الدول عليه أن يتخلى عن الولايات التركية التي استولى عليها بحد السيف في بلاد الشام وشبه جزيرة العرب

هذا، ولما كانت فرنسا صديقة لمحمد علي، تقف إلى جانبه وتشد أزره، فقد سلبتها هذه الاتفاقية هي أيضاً حقها في الشاطئ الأيسر من نهر الرين، ومنحته لألمانيا فعسكرت فيه بعض كتائبها

ومن جراء هذه الاتفاقية التي أضاعت جزءاً من أملاك فرنسا تحمس الرأي السياسي العام في باريس، حتى أن الملك لويس فيليب نفسه صرح بأنه مضطر إلى لبس القبعة الحمراء، وأن ينزع عن النمر كمامته. وهو يعني بذلك المناداة بالثورة الحربية في وجه ألمانيا

***

وبعد هذا التمهيد نقول: إن هذه الأزمة السياسية الدولية التي سببتها حروب محمد علي قد دعت إلى صراع أدبي عنيف بين أدباء ألمانيا وفرنسا ترك أثراً حياً في الشعر الألماني والفرنسي

قالوا إن الشاعر الألماني بيكر كان جالساً ذات يوم مع أصدقاء له في إحدى الحانات، يشرب الجعة ويطالع الصحف السياسية الواردة من فرنسا. وبعد أن رجع الشاعر إلى داره نظم وهو تحت تأثير نشوة الخمر وحماسة السياسة، قصيدته «أنشودة الرين» فما كادت تنشر حتى لحنت وراح يترنم بها الألمان في غدواتهم وروحاتهم والقصيدة هي:

لن ينالوا الرين ذلك النهر الألماني الحر

وإن كانوا يطلبونه بنعيبهم كالغربان الجشعة!

لن ينالوه ما دام يترقرق ساكناً في ثوبه الأخضر!

وما دام هناك مجداف يضرب في مياهه!

وما دامت الصخور قائمة وسط مجراه!

وما دامت الكاتدرائيات الشاهقة تعكس خيالها في مرآته!

لن ينالوا الرين ذلك النهر الألماني الحر

لن ينالوه ما دام الفتيان الحديدو القلوب يغازلون الفتيات المشوقات القوام!

وما دامت هناك سمكة تسبح في أعماقه!

وما دام على شفاه المنشدين أنشودة تردد!

لن ينالوا الرين ذلك النهر الألماني الحر

لن ينالوه حتى تدفن عظام آخر رجل في طيات أمواجه!

ولما ذاق الشاعر الألماني بيكر حلاوة الشهرة عقب ذيوع هذه الأنشودة، بعث بنسخة منها إلى شاعر فرنسا الكبير: لامارتين، وكان ذلك منه على سبيل الأدب والتحدي معاً!

غير أن لامارتين كان داعية سلم ووئام، ولم يكن في يوم من الأيام بوقاً للحرب والخصام؛ وكان يقول: أنا ابن الإنسانية قبل أن أكون ابن فرنسا؛ ولتهلك أمتي إذا كان في هلاكها حياة الإنسانية

ولهذا جاءت قصيدته في الرد على الشاعر الألماني تفيض بروح المحبة والسلام. وقد دعاها فعلاً: «مارسيليز السلام» ومنها:

يا نهر الرين، يا نيل الغرب!

يا كأساً تستقي منها الأمم!

سر حراً متكبراً في مجراك بين عرض شاطئيك!

واحمل في طياتك مطامع الشعوب الساكنة المرتوية من مائك الشبم!

لن يدنس بعد اليوم بلور مياهك دم الفرنسي الأحمر، ولا دم الجرماني الأزرق، كما أن البارود لن يقوض بعد اليوم الجسور الممتدة فوقك بين الشعبين كاليد الممتدة للمصافحة!

سر في مجراك يا نهر

ولا تبال إذا كان الذين تحملهم أو ترويهم هم قاطني شاطئك الشرقي أو الغربي

وطن كل إنسان هو الإقليم الذي يمتد إليه عقله، فأنا مواطن لكل إنسان يفكر، فالحقيقة هي بلادي!

النسر والثور يشربان من مياهك. فليقترب إذن الإنسان من أخيه الإنسان وليشربا من مياهك!

***

وعند ما نشر رد لامارتين هذا على أنشودة الشاعر الألماني قابله الشعب الفرنسي بشيء من الفتور عظيم، وذلك لخلوه التام من الروح الحربي والحماسة الوطنية، حتى أن فريقاً من

النقاد اتهم لامارتين ظلماً بعدم الاخلاص للوطن في حين أن الشاعر معروف بوطنيته الصادقة ، ولكنه كان يمقت الدعاية للحرب وإراقة الدماء البريئة ، وترميل النساء ، وتيتيم الأطفال ، وتخريب المدن الجميلة العامرة

* * *

ولقد كانت الصالونات الأدبية في باريس في ذلك الأوان لا حديث لها إلا « أنشودة الرين » لبيكر ، و « مارسيليز السلام » للامارتين .

وكان صالون مدام جيراردون غاصاً ذات يوم برهط من أدباء فرنسا وعلى رأسهم الشاعر الشهير : ألفرد دى موسيه ، وكان الحديث يدور رد لامارتين ، فانبرت ربة الصالون تقول :

لا مشاحة في أن قصيدة لامارتين آية في البلاغة ، ولكنني كنت أوثر رداً أكثر إيلاماً منها ، فأنا متطرفة في الوطنية ، ولا تزال عقيدة الوطن راسخة في ذهني . وكم كنت أود لو تصدى واحد من شعرائنا لذلك الشاعر الألماني المتحمس ، فكال له الصاع صاعين ! فقال لها ألفرد دى موسيه : وأنا على رأيك يا سيدتي . وهنا صاح به الحاضرون : عليك بالرد إذن ... عليك بالرد ، وقد أحاطوا به ملحين . ثم اقتادوه إلى حديقة الدار ، وأوصدوا باب الصالون دونه ، بعد أن زودوه بالورق والقلم ، ولفافتين من التبغ ! ولم يمض إلا وقت وجيز حتى أتوا إليه فوجدوه قد أحرق اللفافتين ، ونظم القصيدة التالية في الرد على نشيد الرين ، وهى : —

قد نلنا الرين نهركم الألماني !
وقد وسعه جام من جاماتنا !

فهل لأنشودة يسير بها القوم هازجين أن تمحو الأثر العظيم الذي تركته حوافر جيادنا المصبوغة بنجيع دمائكم ؟!

قد نلنا الرين نهركم الألماني !

فان في أحشائه جرح يسيل دامياً من عهد ما مزق « كونديه » القائد الفرنسى الظافر ثوبه الأخضر !

ولا شك في أن الأبناء لمارون حيث مر الآباء !

قد نلنا الرين نهركم الألماني !

أين كانت فضائلكم الجرمانية يوم كان نابليون القدير يبسط ظل سلطانه على سهولكم ؟!

وأين وقع آخر عظم من عظام رجالكم ؟!

قد نلنا الرين نهركم الألماني !

فإن كنتم نسيتم تاريخكم ، فإن بناتكم أكثر احتفاظاً بذكرانا منكم ، فقد صببن في كؤوسنا نبيذكم الأبيض !

قد نلنا الرين نهركم الألماني !

وإذا كان الرين لكم فاغسلوا فيه ثيابكم

وإذا ما تكلمتم عنه فاخفضوا الصوت ، فكم كنتم من غربان في اليوم العصيب حول النسر المحتضر : نابليون

فليتدفق نهركم الألماني بسلام

ولتنعكس صور كاتدرائياتكم القوطية في مياهه !

ولكن احذروا ، فإن أناشيدكم الخمرية قد توقظ الأموات من رقادها الدموى !

* * *

فما كاد موسيه ينتهى من إنشاد قصيدته النارية على السامعين حتى دوى المكان بالتصفيق وتعالى هتاف الاستحسان والتقريظ

وعندما تلقت القصيدة الصحف الفرنسية نشرتها في أمكنة بارزة ، مشفوعة بالتهليل والتكبير

وقد ازداد بسببها هياج الرأى العام في فرنسا والمانيا

وكان من الضباط الألمان من أرسلوا إلى الشاعر الفرنسى دى موسيه رسائل يدعونه فيها للمبارزة !

ولكن دى موسيه أجاب : إذا لم يكن من المبارزة بد ، فهو لا يبارز إلا رضيفه الشاعر الألماني بيكر . ولكن بيكر لم يلب الدعوة

* * *

ويقال إن هذا الصراع الأدبي بين شعراء فرنسا وألمانيا في عام ١٨٤٠ م كان من ضمن الشرر الذى أشعل نار الحرب بين الشعبين بعد مضى ثلاثين سنة ، عام ١٨٧٠ م ، وهى الحرب المعروفة في تاريخ أوروبا بحرب السبعين

أم درمان سودان — المبارك ابراهيم

في وجه الثورة على الأخلاق

للأستاذ أمين الخولي
الأستاذ بكلية الآداب

يا صاحب الرسالة

أبلغت قراءك ثورة محمود على الأخلاق فتحدث إليه الأستاذ عزام، وسكت محمود حين امتلأ بطنه؛ لكن كان المجلس حافلا بغير محمود من رجال العلم والدين والأدب، فكانوا كلهم لمحمود وعلى عزام ... وإنما كان موضع الجدل أن الأخلاق الفاضلة لا تصلح أن تكون عدة النجاح إن لم تكن عدة الفشل ... وأن هؤلاء الطيبين الأخيار الذين وصفهم الأستاذ عزام بالقناعة، وخصهم بالرضا، لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً ما من رجال المال والأعمال كصيدناوي والبدراوي وعبود (١)

فلنسأل الثائرين عن هذا ثم ننتقل إلى غيره: لم لا تصلح الأخلاق الفاضلة أن تكون عدة النجاح؟ هل يتحدث الواقع الصحيح بهذا؟ لا أظن؛ بل أعتقد دائماً أن فشل الفاشلين لعجزهم أو ضعفهم أو نقصهم يعلل بالفضيلة والأخلاق. وإلا فهل خرج إلى ميدان واحد من الحياة رجلان تساوى فهمهما لهذه الحياة، وتساوى تسلحهما لما يبغيان من غاية، وكان أحدهما نبيلا، والآخر فسيلا، فنجح الثاني وسقط الأول، أو نجح الثاني أكثر من نجاح الأول، بغير فارق إلا فضيلة الأول ورذيلة الثاني؟ لا أظن، فلو كانا في عمل حر ولهما هذا التساوي التام لأكد الواقع أن أي مجتمع مهما اشتد فساده سيجد في فضيلة الأول نوعاً من الدقة والثبات، وسبباً للطمأنينة إليه، ويدفعه كل أولئك إلى الإعجاب به وإيثار معاملته؛ بل لا أشك في أن الثاني السافل لن ينجح إلا إذا اصطنع هذه الفضيلة وحقق آثارها بل ادعاها في غير مناسبة كما هو شأن أعداء الفضيلة دائماً. ولو تخلفت هذه النتيجة فنجح النذل أو زاد نجاحه لغير فارق آخر بين الرجلين فما أظن هذا يكون إلا عن نسبة من الندرة تؤكد القاعدة ولا تهدمها؛ وأنا كفيل بأن تجد دائماً في مثل هذه الحالة فارقاً في الكفاية والاستعداد واليقظة وما إلى ذلك

وإن ذهب وهم القارئ - كما ذهب وهم أصحاب هذه الثورة - إلى أن النذل سيصطنع بعد الكفاية والاستعداد أساليب منحطة لا يلوى عليها النبيل، فقد فاته أن يقظة النبيل تقضى عليه باحتياط نبيل لهذه الأساليب، وعمل على كشفها وفضحها، وإلا كان ناقص الاستعداد محدود الفهم لواقع الحياة ونذالة الأنذال، وعاد النقص على استعداده ولم يكن الذنب لفضيلته

هذا حين يتحد الميدانان؛ لكن الثائرين سيقولون إن الميادين متعددة وسبلها إلى الوصول مختلفة، وسيتخير النذل أقصرها وأسرعها فيصل في غير مشقة، على حين يكد الفاضل فيصل متأخراً ولا يصل إلا لبعض الشيء. فهب أحدهما اتجر في الغلال أو الأقطان لأنه فاضل، واتجر الثاني في المخدرات أو الرقيق الأبيض لأنه لا يبالي؛ حسن، سيربح الأول ربحاً يسيراً ثابتاً غير مهدد بالتضحية من أجل حمايته أو الوصول إليه لأنه أكشف الوجه واضح الطريق، ربحاً غير مهدد بالمطاردة، غير مهدد بالمخاطرة، غير مهدد بالمرض وقصف العمر سريعاً؛ وسيربح الثاني ربحاً وافراً سريعاً يبذل غير القليل منه لحمايته أو الوصول إليه، ربحاً مهدداً بالخطر، مهدداً بقصر العمر إثر الجهد والاحتيال والمجازفة، بل مهدداً بالموت السريع، والفضيحة العاجلة ... إلى آخر ما لا أزعج القارئ به من آفات تكفي أيسر نظرة متأنية لتبينها وتشهد بأن لذة زوجة شريفة من زوجية غير سعيدة أكثر في مجموعها وأقوى في جملتها من لذة مومس هائلة، لا تزيد حياتها في ذلك على بضع سنوات حين تطول حياة الزوجة عقوداً بعد تلك السنين. والعملية الحسابية المادية تحدث نتيجتها دائماً لو أحسن حساب اللذائذ والآلام، والخسائر والمكاسب بأن الفضيلة قد اختيرت لعائدتها فوق ما فيها من النبل، وأن ليس الفشل لسبب خلقي بل لغيره دائماً

وهنالك الوظائف والدواوين لجريان الأمر فيها على الهوى واضطراب السياسة قد تظهر ميداناً غير خاضع لهذه القاعدة، ميداناً قد ترتفع فيه نسبة الشذوذ والتخلف، لكن حتى هذا الميدان تنتهي فيه النظرة المتأنية إلى تلك النتيجة نفسها، فلو دخله موظفان قد تساويا في كل شيء، واختلفا في الخلقية لم يهن أن ينجح النذل لنذالته لا غير إلا حين يسلك طرائق يأباها الشريف فيتقدم هذا كلما اضطرب الميزان وضعف الرئيس، لكنه تقدم غير مطرد؛ إنه تقدم مهدد بمثل ما يهدد تاجر المخدرات أو قريباً

(١) من عبارة الأستاذ الزيات في العدد ٢٣١ من الرسالة بتصرف اقتضاه إدماج العبارة لا غير

منه طفرة سريعة ونكسة غير بطيئة ؛ ولا أقل من ألم الخوف والفزع بعدم ثبات الحالة ، وتغير السيد ، والرأس الناكسة ، والعجز عن دعوى الفضيلة والكرامة التي يحرص مثل هؤلاء على ادعائها . آلام تنتهي بها العملية الحسابية إلى قريب من نتيجتها المطردة ؛ وفي الجانب الثاني لذائذ لا يرضى الشريف أن يدع مكانه مستبدلا بها آلام خصمه ، ولو ساومته على ذلك لرفض . هذا إذا كان كل الفرق بينهما الأخلاق ؛ أما إن وجدت شيئاً وراء ذلك كما هو الكثير الغالب ، بل الذي يقع دائماً ، من لباقة وحسن بيان ، ومعرفة بالرغبات ، ومرونة في العمل ، وطلاقة وجه ، وما إلى ذلك ، فقد عادت اللائمة على وخامة الثاني ونقصه لا على أخلاقه ، ولم تكن الأخلاق سبيلا إلى الفشل ولا عائقاً عن النجاح

وأما دعوى الثورة أن الطيبين القانعين المخصوصين بالرضا لن يستطيعوا أن يكونوا يوماً ما من رجال المال والأعمال كفلان وفلان فدعوى يقول الأستاذ الزيات على لسان أصحابها : ما معنى أن يظل التواضع والقناعة والزهد والمداراة والتوكل على اطلاقها فضائل ؛ كما يقول : أليس صلف الإنجليزي أبلغ في العزة ، وطمع الفرنسي أليق بالحياة ، وطموح الإيطالي أخلق بالرجولة ، وصراحة الألماني أدعى إلى الهيبة ، واستقلال الأمريكي أضمن للفوز ؟

تلك هي الدعوى ؛ لكن هذا المعنى للفضائل التي عدت مغنى لا تعرفه خلقية دينية ، ولا تقره خلقية فلسفية ؛ فإنما التواضع أن تكون رفيع القدر فلا تتغطرس ، وليس التواضع انضاعاً . وإنما القناعة أن تملك فلا تشره ، وليست القناعة ترك مادة الحياة وإفساح الطريق لعاد أو غاصب . وإنما الزهد أن تستطيع فلا تنهم ، وليس الزهد العجز عما في الدنيا والحسرة على ما في أيدي الناس . وإنما التوكل أن تقدم واثقاً لا أن تحجم عاجزاً . وأما المداراة فما عرفناها بين الفضائل . والخلق والدين يقرران أن صلف الانجليزي قبيح أفضل منه عزة المؤمن الذي يرى العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فحسب . وطمع الفرنسي قبيح أليق منه قيام المتدين وذي الخلق بحق الحياة وواجبها . وطموح الايطالي مفتعل أصل منه تلك العزة الروحية وهذا الإباء الساعي لإعلاء كلمة الحق ، المتقدم إلى الدنيا بمهمة اجتماعية ، وعمل إنساني يرغم من أجله ويجهد في سبيله . واستقلال الأمريكي بعض مغامرة الذي يقدم واثقاً بإحدى الحسنيين . وصراحة الألماني بعض شجاعة الذي لا يخشى في الحق لومة لائم . وما هذا الذي يعيب الثائرون من صور التواضع المتضع ، والزهد العاجز ، والقناعة المحرومة ، والتوكل الخامل ، إلا صور لا تعرفها الأخلاق ولا يفشل أصحابها لأخلاقهم بل يفشلون لفشل أخلاقهم

وأما هذا الربا الذي جاء في عداد تلك الأخلاق فمسألة اقتصادية عملية ، لا خلقية أدبية ؛ وهي فكرة اقتصادية ، يقرن فيها النظام الاسلامي الكامل الذي قررها بالنظم الاقتصادية الأخرى ليحكم لهذا أو ذاك ، وليست تلك المسألة من أسباب الثورة على الأخلاق في شيء

***

ويعرض الأستاذ الزيات على لسان تلك الثورة أن يكون مقياس الفضائل والرذائل هو النفع والضرر ، فما كان مؤدياً إلى منفعة سمي فضيلة ، وما كان مؤدياً إلى مضرة سمي رذيلة . وهذا مقياس لا يأباه الدين ولا الخلق ، فالمذهب المنفعي قديماً وحديثاً معروف بين مذاهب الخير ؛ ولكن ليس بهذا اليسر والسهولة التي تفهمها الثورة على الأخلاق ، وتأخذ فيه باللمحة الطائرة . فما المنفعة المحكمة ؟ وما المضرة المتقاة ؟ أمنفعة الفرد أم منفعة الأسرة أو الأمة أو العالم ؟ آلمنفعة المادية الحاسية أم المنفعة المعنوية العقلية أم هما أم فرع منهما وما هو ؟ آلمنفعة العاجلة أم المنفعة الآجلة أم هذه وتلك ؟ ومتى تكون هذه ومتى تكون تلك ؟ وإذا تعارضت منفعة ومضرة فكيف يوازن بينهما وبأي شيء ؟ وإذا وجدت منفعتان في عملين فكيف يفاضل بينهما وبأي شيء ؟ وإذا وإذا ... من مضايق شائكة يسلكها الباحث ليخرج منها بمقياس للأخلاق منفعي . وقد انتهى كل أولئك الباحثين على اختلاف ما بينهم إلى أن هناك فضيلة ورذيلة ، وأحبوا هذه ، وثاروا على تلك ؛ فلن يكون تحكيم المنفعة منهياً للثورة على الأخلاق . وهأنذا قد حكمت المنفعة فيما مضى من موازنة بين نجاح تاجر الغلال وتاجر المخدرات فلم تخرج النتيجة شاهدة بفشل الأخلاق

وأخيراً يا صاحب الرسالة : اسمح لي أن أحملك رسالة إلى الثائرين . قل لهم : استعدوا للحياة بعد فهمها فهماً صحيحاً قبل أن تلقوا تبعة فشلكم على الأخلاق . ولا تحكموا على الفضائل بعمل الناس فتحكموا بفشل الأخلاق ، لأن للفضائل حقائق ثبتت على الاختبار ، وأيدتها التجربة بعد بحث لا تزال الإنسانية تمنحه قوتها وجهدها . وانظروا إلى النتائج البعيدة والقريبة للأعمال ،

أناشيد صوفية

جيتانجالى

للشاعر الفيلسوف طاغور

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

— ٢٦ —

لقد دلف إليّ وجلس إلى جانبي ولكني لم أستيقظ . يا لتعس هذه النومة ، ويا لشقاوتي !

جاء والليل ساج وفي يده قيثاره ، فرن نغم لحنه العذب خلال أحلامي

يا أسفا ، أهكذا تضيع ليالىّ ؟ آه ، لماذا أحرم — دائماً — النظر إليه وأنفاسه تداعبني في نومي ؟

— ٢٧ —

النور ؛ أوه ، أين هو النور ؟ أشعله بنار الرغبة المتأججة

ها هو المصباح ولكنه لا يضيء أبداً ؛ إنه مظلم كحظك يا قلبي ! آه ، إن الموت خير لك

إن البؤس يقرع بابك ليوحي إليك بأن سيدك يقظان يناديك إلى ميعاد الهوى في غسق الليل

السماء مثقلة بالغيوم ، والمطر ما يبرح يهطل مدراراً ، وأنا لا أعرف ما ذا يضطرب في جوانحي ، ولا أعي له معنى

إن وجهي يكفهر لومضات البرق ، وقلبي يتلمس طريقه إلى حيث موسيقا الليل تناديه

النور ؛ أوه ، أين هو النور ؟ أشعله بنار الرغبة المتأججة ! السماء ترعد ، والرياح تهب هوجاء تملأ الفضاء ، والليل قاتم كالصخرة السوداء ؛ فلا تدع الظلام يخيم علينا ، واشعل مصباح الهوى بنور حياتك

— ٢٨ —

إن صلابة الرأي عقال يتألم قلبي حين أحاول أن أتخلص منه

إن الحرية هي كل ما أبتغي ، وأنا أستشعر الخجل حين أتمناها

أنا أومن بأن بين يديك الثراء العريض ، وأنك أنت صديقي الحميم ، ولكني لا أجد في نفسي الجرأة على أن أزيل كل ما يملأ حجرتي من بَهْرج

إن هذا السجف التي يسترني هو كفن من التراب والموت أنا أبغضه غير أني أضني به

إن ديوني كثيرة وخطاياي أعظم ، وعيوبي التي أخفيها في نفسي تثقلني ؛ وحين أنطلق لأطلب إليك الاحسان تسيطر عليّ رِعْدة شديدة خشية ألا تتقبل صلاتي

— ٢٩ —

إن في هذا البناء — جسمي — شبحاً يذرف الدمع في خلوته ، وأنا دائماً في شغل شاغل أشيد حوله سوراً عالياً ، وعلى مرّ الأيام ارتفع سَمْكه فعميت عن حقيقة وجودي وأنا في ظلامه القاتم

لقد أخذتني العزة بهذا السور الشامخ فاندفعت أطليه بالطين والرمل خشية أن تكون به فُرجة ، ولكن ما بذلت من جهد أعماني عن حقيقة وجودي

— ٣٠ —

ها أنا أتيت وحيداً لأفي بوعدي ؛ ولكن من هذا الذي يتبعني في دجى الليل وسكونه ؟ وعبثاً تحولت عن طريقي لأضلله

إنه يثير الغبار وهو يمشي الخيلاء ، وهو يردد قولي في صوت أجش

إنه روحي الضئيل — يا إلهي — وهو لا يستشعر الخزى ، وأنا أستحي أن ألج بابك برفقته

— ٣١ —

قلتُ : « يا أيها السجين ؛ خبرني ، من ذا الذي قيدك هنا ؟ »

ودققوا في الموازنة بين فاشل وناجح قبل أن تحكموا بأن هذا فشل لأخلاقه دون غيرها ، وهذا نجح برذائله دون غيرها . ولا تظنوا طيبة القلب وسلامة الضمير والبعد عن إيذاء الناس وسائل وأسلحة تكفي وحدها للنجاح كما ظن ظانون أن الايمان وحده كاف لهزيمة الأعداء ؛ لأن الله قد سير هذا الكون على نواميس لا تتخلف ، وجعل الميزات المعنوية والنفسية مرجحات بين من تساويا مادياً وفهما النواميس فهماً واحداً ؛ وبدل أن تهيب بدهاقنة الدين وفلاسفة الأخلاق أن يتدخلوا في سوق الفضائل معدلين ، أهب بزعماء الثورة أن يتدخلوا في تقدير الحياة مدققين ؛ فإن ثاروا بعد ما كملت لهم هذه الدقة فعلى الدهاقنة أن يعيدوا النظر فيعدلوا ويحوروا

أمين الخولي

قال: « هو سيدى ، لقد ظننت أنى أبذّ كل إنسان على الأرض بما لدى من ثراء وقوة ، وبين يدى بيت المال وهو ينضم على كل ما يملك مليكى . وحين يغلبنى النعاس أنطرح على فراش كان فى — يوم ما — سرير سيدى ؛ وحين أستيقظ أجد نفسى سجيناً فى بيت المال »

قلت : « يا أيها السجين ؛ خبّرنى ، من ذا الذى صنع هذه السلسلة الصلبة ؟ »

قال : « بيدى الصناع ابتدعتها ، وخُيل إلى ان قوتى الكامنة ستقبض على العالم كله وأظل أنا طليقاً فى أمان ، فقضيت عمراً من عمرى أهين هذه السلسلة أستعين بالنار والمقامع الحديدية الشديدة ؛ فلما فرغت من عملى وتمت حلقاتها وجدت نفسى مقيداً بها »

— ٣٢ —

لقد حاول أحبائى على الأرض جهدهم أن أعيش بين أيديهم فى أمان ؛ ولكن حبك أنت يفوق حبهم . أنت يامن تكفل حريتى

إنهم يلازموننى دائماً خيفة أن أنساهم ، وها هى الأيام تمر سراعاً وأنت ما تزال تتستر خلف الحجب

وإذا لم أتوسل إليك فى صلواتى ، وإذا لم أحفظك فى قلبى ، فحبك لى ما يزال ينتظر حبى لك

— ٣٣ —

وحين يسفر وجه الصبح يفدون إلى دارى زمراً ويقولون « سننزل فى هذه الغرفة الضيقة »

ثم يقولون «سنشد أزرك فى عبادة ربك لننال فضل إحسانه»

ثم قبعوا فى ركن فى هدوء وتواضع

وفى هدأة الليـــل تدافعوا إلى هيكلى المقدس فى صخب ، يستلبون القرابين من محراب الرب فى شرَه

— ٣٤ —

هب لى بعض نفسى فأذكرك كلك

هب لى بعض عزمى فأشعر بك فى كل مكان ، وأنزع إليك فى كل عملى وأحبوك بحبى فى كل آن

هب لى بعض نفسى فلا أستخفى منك

هب لى بعض هذه الأغلال فأنا مقيد بمشيئتك ، وما تريده فهو آت ... هذه القيود هى قيود حبك

— ٣٥ —

حين يطمئن الفؤاد فلا يستولى عليه الذعر فيرتفع الرأس عالياً

حين تكون حرية الراى ،

حين لا يتصدع العالم شيماً وتفرق بينه الحدود الضيقة ،

حين تنبعث الكلمات من أعماق الحقيقة ،

حين يمد التناحر الدائم ذراعيه صوب الكمال ،

حين يهتدى الرأى الناضج إلى طريقة السوىّ فلا يضل فى متاهات التقاليد البالية

حين تجذب العقل إليك ... إلى الفكرة والعمل الأبديين

إلى سماء الحرية ؛ انزع — يا إلهى — عن وطنى سباته العميق

— ٣٦ —

ها هى صلواتى إليك ــ يا إلهى ــ : جُذّ أصول العوز من قلبى ؛

امنحنى القدرة على أن أحمل أفراحى وأتراحى معاً

امنحنى القدرة على أن أخلق من حبي عملاً صالحاً

امنحنى القدرة على ألاّ أنهر فقيراً ، وألاّ أخرّ على ركبتى أمام غطرسة الجبار

امنحنى القدرة على أن أسمو بعقلى فوق السخافات الأرضية

ثم امنحنى القدرة على أن أنزل فى رضا عن كبريائى أمام مشيئتك

— ٣٧ —

يتراءى لى كأن رحلتى قد انتهت عند الغاية ، عند آخر نزوة من نزوات قوتى — ها هو الطريق قد أغلق أمامى ، ونفد زادى وآن لى أن أستريح فى سكون الظلام

ولكن يخيل إلىّ أن إرادتك لا تجد فىّ النهاية ، فحين تموت الكلمات الرثة على شفتىّ يتفجّر القلب بنغم عذب ، وحين تنسد أمامى المسالك القديمة يتفتّح أمامى عالم جديد فيه العجائب

— ٣٨ —

إننى أهفو إليك ، إليك وحدك — دع قلبى يرددها مرات ومرات فى غير نهاية . إن الوساوس التى تلح علىّ صباح مساء ، لتصرفنى عنك ، إن هى إلاّ جوفاء خدّاعة

حين يتوارى الليل خلف سجوفه ينتظر بسمة الفجر ، ترن فى أعماق قلبى صيحة : إننى أهفو إليك ، إليك وحدك

حين تعدو العاصفة الهوجاء فى طريقها تبتغى الهدوء فتبدد هى السكون فى صولة وبأس ... فى هذا الحين تعصف تورتى الجامحة بحبك وهى ماتزال ترسل صيحاتها : إننى أهفو إليك ، إليك وحدك

كامل محمود حبيب

الـكميت بن زيد

شاعر العصر المروانى

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ٤ —

وأما الرواية الثانية فى سبب المنافرة بين الـكميت وخالد بن عبد الله فقد نقلها أبو الفرج الأصبهانى من كتاب محمد بن يحي الخراز ، قال حدثنى أحمد بن ابراهيم الحاسب ، قال حدثنى عبد الرحمن بن داود بن أبي أمية البلخى ، قال : كان حكيم بن عباس الأعور الكلبي ولعاً بهجاء مضر ، فكانت شعراء مضر تهجيه ويجيبهم ، وكان الـكميت يقول هو والله أشعر منكم . قالوا فأجب الرجل ، قال إن خالد بن عبد الله القسرى محسن إلي فلا أقدر أن أرد عليه . قالوا فاسمع بأذنك ما يقول في بنات عمك وبنات خالك من الهجاء ؛ وأنشدوه ذلك ، فحمى الـكميت لعشيرته فقال المذهبة :

« ألا حُيّيتِ عنّا يا مَدينا »

فأحسن فيها ، وبلغ خالداً خبرها ، فقال لا أبالي مالم يجر لعشيرتى ذكر ، فأنشدوه قوله :

ومن عجبٍ على لَعَمْرُ أمّ ِ غَذَتْكَ وغير هاتيًا يمينا
تجاوزتَ المياهَ بلا دليلٍ ولا علمٍ تعَسَّفَ مخطئينا
فانك والتحوُّلَ من مَعَدٍّ كهيلة قبلنـا والحالبينا
تخطتْ خيرهم حَلْباً ونَسْئاً إلى الوالى المغادر هاربينا
كعنزِ السُّوءِ تنطح عالفيها وترميهـا عِصىُّ الذابحينا

فبلغ ذلك خالداً فقال : فعلها ! والله لأقتلنه . ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن ، وتخيرهن نهاية فى حسن الوجوه والـكمال والأدب ، فرواهن الهاشميات ، ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك فاشتراهن جميعاً . فلما أنس بهن استنطقهن فرأى فصاحة وأدباً ، فاستقرأهن القرآن فقرأن ، واستنشدهن الشعر فأنشدنه قصائد الـكميت الهاشميات ، فقال : ويلـكن من قائل هذا الشعر ؟ قلن : الـكميت بن زيد الأسدي ، قال : وفى أى بلد هو ؟ قلن : فى العراق ثم بالـكوفة ، فـكتب إلى خالد : ابعث إلى برأس الـكميت بن زيد . فبعث خالد إلى الـكميت فى الليل فأخذه وأودعه السجن . ولما كان من الغد أقرأ من حضره من مضر كتاب هشام واعتذر إليهم من قتله ، وآذنهم فى إنفاذ الأمر فيه فى غد . فقال لأبان بن الوليد البجلى وكان صديقاً للـكميت : أنظر ما ورد في صديقك ، فقال عز علىّ والله ما به . ثم قام أبان فبعث إلى الـكميت فأنذره فوجه إلى امرأته ، ثم ذكر الخبر في خروجه ومقامها مكانه كما ذكر من تقدمه ، وقال فيه : فأتى مسلمة بن عبد الملك فاستجار به ، فقال : إنى أخشى ألا ينفعك جوارى عنده ، ولـكن استجز بابنه مسلمة بن هشام ، فقال : كن أنت السفير بيني وبينه في ذلك ، ففعل مسلمة وقال لابن أخيه : قد أتيتك بشرف الدهر ، واعتقاد الصنيعة فى مضر ، وأخبره الخبر

فأجاره مسلمة بن هشام ، وبلغ ذلك هشاماً فدعا به ثم قال : أتجير على أمير المؤمنين بغير أمره ؟ فقال : كلا ولـكني انتظرت سكون غضبه . قال : أحضرنيه الساعة ، فانه لا جوار لك . فقال مسلمة للـكميت : إن أمير المؤمنين أمرنى باحضارك . قال : أتسلمني يا أبا شاكر ؟ قال : كلا ولـكني أحتال لك . ثم قال له : إن معاوية ابن هشام مات قريباً ، وقد جزع عليه جزعاً شديداً ، فاذا كان من الليل فاضرب رواقك على قبره ، وأنا أبعث إليك بنيه يكونون معك فى الرواق فاذا دعا بك تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بثيابك ، ويقولوا هذا استجار بقبر أبينا ، ونحن أحق من أجاره

فأصبح هشام على عادته متطلعاً من قصره إلى القبر . فقال : من هذا ؟ فقالوا : لعله مستجير بالقبر . فقال : يجار من كان إلا الـكميت ، فإنه لا جوار له ، فقيل : فإنه الـكميت ، قال : يحضر أعنف إحضار ، فلما دعى به ربط الصبيان ثيابهم بثيابه ، فلما نظر هشام إليهم اغرورقت عيناه واستعبر وهم يقولون : يا أمير المؤمنين ، استجار بقبر أبينا وقد مات ، ومات حظه من الدنيا ، فاجعله هبة له ولنا ، ولا تفضحنا فيمن استجاز به . فبكى هشام حتى انتحب ، ثم أقبل على الـكميت فقال له : يا كميت أنت القائل :

وإنْ لا تقولوا غيرها تتعرَّفوا نواصيها تردى بنا وهى شُزبُ

فقال : لا والله ولا أتان من أتن الحجاز وحشية ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ، ثم قال : أما بعد — فإنى كنت أتدهدى فى غمرة ، وأعوم فى بحر غواية ، أخنى على خطلها ، واستفزنى وهلها ، فتحيرت فى الضلالة ، وتسكعت فى الجهالة ، مهرعاً عن

الحق ، جائراً عن القصد ، أقول الباطل ضلالاً ، وأفوه بالبهتان وبالاً ، وهذا مقام العائذ مبصر الهدى ، ورافض العماية ، فاغسل عنى يا أمير المؤمنين الحوبة بالتوبة ، واصفح عن الزلة ، واعف عن الجرمة ، ثم قال :

كم قال قائلكم لعاً ... لك عند عثرته لعاثر
وغفرتم لذوى الذنو ... ب من الأكابر والأصاغر
أبني أميـة إنكم ... أهل الوسائل والأوامر
ثقتى لكل ملمة ... وعشيرتى دون العشائر
أنتم معادن للخلا ... فة كابراً من بعد كابر
بالتسعة المتتابعيـن خلائفاً وبخير عاشر
وإلى القيامة لا تزا ... ل لشافع منكم وواتر

ثم قطع الإنشاد وعاد إلى خطبته فقال : إغضاء أمير المؤمنين وسماحته وصباحته مناط المنتجعين بحبله ، من لا تحل حبوته لإساءة المذنبين ، فضلاً عن استشاطة غضبه بجهل الجاهلين

فقال له : ويلك يا كميت ، من زين لك الغواية ، ودلاك فى العماية ؟

قال : الذى أخرج أبانا من الجنة ، وأنساه العهد فلم يجد له عزما

فقال : إيه أنت القائل :

فيا موقداً ناراً لغيرك ضوءها ... ويا حاطباً فى غير حبلك تحطب

فقال : بل أنا القائل :

إلى آل بيت أبى مالك ... مناخ هو الأرحب الأسهل
نمت بأرحامنا الداخلا ... ت من حيث لا ينكر المدخل
بمرة والنضر والمالكيـن رهط هم الأنبل الأنيل
وبارى خزيمة بدر السما ... ء والشمس مفتاح ما نأمل
وجدنا قريشاً قريش البطا ... ح على ما بنى الأول الأول
بهم صلح الناس بعد الفسا ... د وحيص من الفتق ما رعبلوا

قال له : وأنت القائل :

لا كعبد المليك أو كوليد ... أو سليمان بعد أو كهشام
من يمت لا يمت فقيداً ومن يحـيى فلا ذو إل ولا ذو ذمام

ويلك يا كميت ، جعلتنا ممن لا يرقب فى مؤمن إلا ولا ذمة ،

فقال : بل أنا القائل يا أمير المؤمنين :

فالآن صرت إلى أميـة والأمور إلى المصاير
والآن صرت بها المصيـب كمهتد بالأمس حائر
يا ابن العقائل للعقا ... ئل والجحاجحة الأخاير
من عبد شمس والأكا ... بر من أمية فالأكابر
إن الخلافة والإلا ... ف برغم ذى حسد وواغر
دلفا من الشرف التليـد إليك بالرفد الموافر
فحللت معتلج البطا ... ح وحل غيرك بالظواهر

قال له : فأنت القائل :

فقل لبني أمية حيث حلوا ... وإن خفت المهند والقطيعا
أجاع الله من أشبعتموه ... وأشبع من بجوركم أجيعا
بمرضى السياسة هاشمى ... يكون حياً لأمته ربيعا

فقال : لا تثريب يا أمير المؤمنين إن أردت أن تمحو عنى قولى الكاذب ، قال بماذا ؟ قال بقولى الصادق :

أورثته الحصان أم هشام ... حسباً ثاقباً ووجهاً نضيرا
وتعاطى به ابن عائشة البد ... ر فأمسى له رقيباً نظيرا
وكساه أبو الخلائف مروا ... ن سنى المكارم المأثورا
لم تجهم له البطاح ولكن ... وجدتها له معاناً ودورا

وكان هشام متكئاً فاستوى جالساً وقال : هكذا فليكن الشعر يقولها لسالم بن عبد الله بن عمر وكان إلى جانبه ، ثم قال : قد رضيت عنك يا كميت . فقبل يده وقال : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تزيد فى تشريفى ، ولا تجعل لخالد على إمارة ، قال : قد فعلت وكتب له بذلك وأمر له بأربعين ألف درهم ، وثلاثين ثوباً هشامية وكتب إلى خالد أن يخلى سبيل امرأته ، ويعطيها عشرين ألفاً وثلاثين ثوباً ، ففعل ذلك

وأما الرواية الثالثة فقد قال فيها أبو الفرج الأصبهانى : أخبرنى أحمد بن عبد الله بن عمار ، قال حدثنا النوفلى على بن محمد بن سليمان أبو الحسن ، قال حدثنى أبى قال : كان هشام بن عبد الملك قد اتهم خالد بن عبد الله ، وكان يقال له إنه يريد خلعك ، فوجد بباب هشام يوماً رقعة فيها شعر ، فدخل بها على هشام فقرئت عليه ، وهى :

تألق برق عنـدنا وتقابلت
أثاف لقـدر الحرب أخشى اقتبالها
فدونك قدر الحرب وهى مقرة
لكفيك واجعل دون قدر جعالها
ولن تنتهى أو يبلغ الأمر حده
فنلها برسل قبل ألا تنالها

فَتَجَشَّمَ منها ما جَشِمْتُ من التي
بسُوراءَ هَرَّتْ نحو حالكَ حالها

تَلافَ أمورَ الناس قبل تفاقُمٍ
بعُقْدَةِ حزمٍ لا تخاف انحلالها

فما أبرمَ الأقوامُ يوماً لحيلةٍ
من الأمر إلا قلَّدُوكَ احتيالها

وقد تُخْبِرُ الحربُ العوانُ بسرِّها
وإن لم تَبُحْ من لا يريد سؤالها

فأمر هشام أن يجمع له من بحضرته من الرواة فجمعوا، فأمر بالأبيات فقرئت عليهم، فقال: شعر من تشبه هذه الأبيات؟ فأجمعوا جميعاً من ساعتهم أنه كلام الكميت بن زيد الأسدي، فقال هشام: نعم هذا الكميت ينذرني بخالد بن عبد الله، ثم كتب إلى خالد بخبره وكتب إليه بالأبيات، وخالد يومئذ بواسط فكتب خالد إلى واليه بالكوفة يأمره بأخذ الكميت وحبسه، وقال لأصحابه: إنه بلغني أن هذا يمدح بني هاشم ويهجو بني أمية فأتوني من شعره هذا بشيء، فأتوه بقصيدته اللامية التي أولها:

ألا هل عَمٍ في رأيه متأمل — وهل مدبر بعد الاساءة مقبل

فكتبها وأدرجها في كتاب إلى هشام يقول فيه: هذا شعر الكميت، فإن كان قد صدق في هذا، فقد صدق في ذاك

فلما قرئت على هشام اغتاظ، فلما قال:

فياساسة هاتوا لنا من جوابكم — ففيكم لعمري ذو أفانين مقول

اشتد غيظه، فكتب إلى خالد يأمره أن يقطع يدي الكميت ورجليه ويضرب عنقه، ويهدم داره ويصلبه على ترابها. فلما قرأ خالد الكتاب كره أن يستفسد عشيرته، وأعلن الأمر رجاء أن يتخلص الكميت، فقال: لقد كتب إلى أمير المؤمنين، وإني لأكره أن استفسد عشيرته وسماه، فعرف عبد الرحمن بن عنبسة ابن سعيد ما أراد، فأخرج غلاماً له مولداً ظريفاً، فأعطاه بغلة له شقراء فارهة من بغال الخليفة، وقال: إن أنت وردت الكوفة فأنذرت الكميت لعله أن يتخلص من الحبس فأنت حر لوجه الله والبغلة لك، ولك على بعد ذلك إكرامك والاحسان إليك فركب البغلة وسار بقية يومه وليلته من واسط إلى الكوفة فصبحها، فدخل الحبس متنكراً، فخبر الكميت بالقصة، فأرسل إلى امرأته وهي ابنة عمه يأمرها أن تجيئه ومعها ثياب من لباسها وخفان ففعلت، فقال: ألبسيني لبسة النساء ففعلت، فخرج فمر بالسجان فظن أنه المرأة فلم يعرض له، فنجا وأنشأ يقول:

خرجتُ خروجَ القِدْحِ قدحِ ابن مُقبِلٍ
على الرَّغم من تلك النوابح والمُشْلِ

عليَّ ثيابُ الغانياتِ وتحتها
عزيمةُ أمرٍ أشبهتْ سَلَّةَ النَّصْلِ

وورد كتاب خالد على والى الكوفة يأمره فيه بما كتب به إليه هشام، فأرسل إلى الكميت ليؤتى به من الحبس فينفذ فيه أمر خالد، فدنا من باب البيت فكلمتهم المرأة وخبرتهم أنها في البيت وأن الكميت قد خرج، فكتب بذلك إلى خالد، فأجابه: حرة كريمة فدت ابن عمها بنفسها، وأمر بتخليتها، فبلغ الخبر الأعور الكلبي بالشام، فقال قصيدته التي يرمي فيها امرأة الكميت بأهل الحبس ويقول:

« أسْوِدِينا واحمِرِينا »

فهاج الكميت ذلك حتى قال:

« ألا حُيِّيتِ عنَّا يامدينا »

وهي ثلثمائة بيت لم يترك فيها حياً من أحياء اليمن إلا هجاهم وتوارى وطلب فمضى إلى الشام فقال شعره الذي يقول فيه:

« قِفْ بالديار وقوفَ زائرْ »

ويقول:

يامَسْلَمُ ابن أبي الوليد لِمَيِّتٍ إن شئتَ ناشر
اليوم صرتُ إلى أميَّة والأمور إلى المصاير

فأذن له ليلاً، فسأله أن يجيره على هشام، فقال: إني قد أجرت على أمير المؤمنين فأخفر جواري، وقبيح برجل مثلي أن يخفر في كل يوم، ولكني أدلك فاستجر بمسلمة بن هشام وبأمه أم الحكم بنت يحيى بن الحكم، فإن أمير المؤمنين قد رشحه لولاية العهد، فقال الكميت: بئس الرأى، أضيع دمي بين صبي وامرأة، فهل غير هذا؟ قال: نعم، مات معاوية بن أمير المؤمنين وكان يحبه، وقد جعل أمير المؤمنين على نفسه أن يزور قبره في كل أسبوع يوماً — وسمى يوماً بعينه — وهو يزوره في ذلك اليوم، فامض فاضرب بناءك عند قبره واستجر به، فإني

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٧ —

« ... إنه ليس معي إلا ظلالها ، ولكنها ظلال حية تروح وتجيء في ذاكرتي . وكل ما كان ومضى هو في هذه الظلال الحية كائن لا يفنى . وكما يرى الشاعر الملهم كلام الطبيعة بأسره مترجماً إلى لغة عينيه ، أصبحت أراها في هجرها طبيعة حسن فاتن مترجمة بجملتها إلى لغة فكري

« كان لها في قسى مظهر الجمال ومعه حماقة الرجاء وجنونه ثم خضوعي لها خضوعاً لا ينفعني ... فبدلني الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله ، ثم خضوعها لخيالي خضوعاً لا يضرها ...

« وما أريد من الحب إلا الفن ، فان جاء من الهجر فن فهو الحبّ ...

« كلما ابتعدت في صدها خطوتين رجع إلي صوابي خطوة »

« لقد أصبحت أرى ألين العطف في أقسى الهجر ، ولن أرضى بالأمر الذى ليس بالرضا ، ولن يحسن عندى مالا يحسن ولن أطلب الحب إلا في عصيان الحب . أريدها غضبى ، فهذا جمال يلائم طبيعتي الشديدة ، وحب يناسب كبريائي . ودع جرحي يترشش دماً ، فهذه لعمرى قوة الجسم الذى ينبت ثمر العضل وشوك المخلب ، وما هي بقوة فيك إن لم تقو أول شيء على الألم ...

« أريدها لا تعرفني ولا أعرفها ، لا من شيء إلا لأنها تعرفني وأعرفها ... تتكلم ساكتة وأرد عليها بسكوتي . صمت ضائع كالعبث ولكن له في القلبين عمل كلام طويل .. »

(الرافعي)

أوراق الورد

هدأت ثائرة الرافعي هوناً ما ، وفاءت إليه نفسه ، واعتدلت مقادير الأشياء في عينيه ، وعاد إلى حالة بين الرضى والغضب ، وبين الحب والسلوان ؛ فاستراح إلى اليأس ... لولا أثارة من الحنين تنزع به إلى الماضي ، وبقية من الشوق واللهفة على ما كان ، وفرغت أيامه من الحادثة لتمتلئ من بعدُ بالشعر والحكمة والبيان

ومضت سبع سنين والحياة تذهب به مذاهبها ، والذكرى تغشاه في خلوته وتداعبه في أحلامه ، والأمانيّ التي بعثرتها الكبرياء بَدَداً في أودية النسيان تتخايل له في شكول وألوان ، وخواطره من وراء ذلك تعمل ، ونفسه الشاعرة تحس وتشعر وتنفعل بما يتعاقب عليها من الرُّؤى والأحلام . وأتم نظم قصيدته البارعة في « أوراق الوردَ » في سنة ١٩٣١

أوراق الورد هو طائفة من الخواطر المنثورة في فلسفة الحبُ والجمال ، أنشأه الرافعي ليصف حالة من حالاته ، ويثبت تاريخاً من تاريخه ، في فترة من العمر لم يكن يرى لنفسه من قبلها تاريخاً ولا من بعد

ويقول الرافعي إنه جمع في أوراق الورد رسائلها ورسائله . أما رسائله فنعم ولكن على باب من المجاز ، وأما رسائلها فما أدرى أين موضعها من الكتاب ، إلا رسالة واحدة وجُزازات من كتب ونتفاً من حديثها وحديثه

بلى ، إن في أوراق الورد طائفة من رسائله إليها ، ولكنها رسائل لم تذهب إليها مع البريد ، بل هي من الرسائل التي كان يناجيها بها في خلوته ، ويتحدث بها إلى نفسه ؛ أو يبعث بها إلى خيالها في غفوة المنى ، ويترسّل بها إلى طيفها في جلوة الأحلام إلا رسالتين أو ثلاثاً مما في أوراق الورد ... فلما أتم تأليفها وعقد عقدتها ، بعث بها إليها في كتاب مطبوع بعد سبع سنين من تاريخ الفراق !

***

ولكن أوراق الورد ليس كله من وحي (فلانة) ، وليست كل رسائله في الكتاب إليها ؛ فهنالك الأخرى ، هنالك صاحبة (حديث القمر) ، تلك التي عرفها في ربوة من لبنان منذ تسع عشرة سنة ، وهنا فلانة ...

هما اثنتان لا واحدة : تلك يستمدّ من لينها وسماحتها وذكرياتها السعيدة ، معانيَ الحب التي تملأ النفس بأفراح الحياة وهذه يستوحيها معاني الكبرياء والصد والقطيعة وذكريات الحب الذى أشرق في خواطره بالشعر وأفعم قلبه بالألم !

سأحضر معه وأكلمه بأكثر من الجوار

فعمل ذلك الكميت في اليوم الذى يأتيه فيه أبوه ، فجاء هشام ومعه مسلمة فنظر إلى البناء فقال لبعض أعوانه : أنظر ماهذا ؟ فرجع فقال : الكميت بن زيد مستجير بقبر معاوية بن أمير المؤمنين ، فأمر بقتله ، فكلمه مسلمة وقال : يا أمير المؤمنين إن إخفار الأموات عار على الأحياء ، فلم يزل يعظم عليه الأمر حتى أجاره

عبد المتعال الصعيدي

لقد مضت سبع سنين منذ فارق صاحبته (فلانة) كان قلبه فى أثنائها خالصاً لها ، ولكن فكره كان يدور على معانى الشعر يلتمسه من هنا ومن هناك ؛ فلما اجتمع له ما أراد ، ضم أوراق الورد إلى أشواكه ، وأخرجها كتاباً للفن أولا ثم لها من بعد

هو كتاب ليس كله من نبضات قلبه الذى يعشقها وما زال متّيما فى هواها ، ولكن فيه إلى جانب ذلك فكر المفكر وعقل الأديب وحيلة الفنان

بلى ، إنه كان يحبها حباً لا يتسع القلب لأن يشرك فيه غيرها فكان (قلبه) لها من دون النساء جميعاً ، ولكن الذكريات كانت تتوزع (فكره) فتوحى إليه من هنا ومن هنالك ومما يستجد على خواطره من بعد فى معانى الحب والبغض والود والقطيعة

هو كتاب يصور نفسه وخواطره فى الحب ؛ ثم يصوّر فنه وبيانه فى لغة الحب ؛ ثم ... ثم لا يصور شيئاً من بعد مما كان بينه وبين صاحبته على وجهه وحقيقته ، إلا أن يتدبر قارئه ويستأنى ليستخلص معنى من معنى على صبر ومعاناة فى البحث والاستقراء

فما رأيت من رسالة فيها اللهفة والحنين ، وفيها التذلل والاستعطاف ، وفيها تصنُّع الغضب ودعوى الكبرياء ، وفيها المنى الحالمة تتواثب بين السطور فى خفة الفراشة الطائرة ؛ وما رأيت من معنى تحاول أن تمسكه فيفلت ؛ فهو فصل يؤدى أداءه فى قصة هذا الحب العجيب

وما قرأت من رسالة تصف ما كان فى خلوة نفس إلى نفس ، وتقص عليك فى لغة الماضى حديث قلب إلى قلب ، وتكشف لك عن سر الابتسامة ومعنى النظرة ، وتتحدث إليك عن جمال الطبيعة وفلسفة الكون ؛ فهو ذكرى من الماضى البعيد ، كان حباً فى القلب فصار حديثاً فى الفكر ، ثم استتبع شيئاً شيئاً

وما قرأت من قول مزوّق ، وبيان منمّق ، ومعنى يلد معنى ، وفكرة تستجرّ فكرة ، وعبارة تتوكأ على عبارة ؛ فهو من أداء الفن وولادة الفكر

ولقد تجد رسالة كلها حنين ولهفة ، أو حادثة وذكرى ، أو فن من الفن ؛ ولقد تجد كذلك رسالة غيرها تجمع هذه الثلاثة فى قَرَن ؛ ففيها قلب ينبض ، وذكرى تعود ، وبيان مصنوع

فإذا أنت عرفت هذه الثلاثة ، عرفت الكتاب ، وعرفت صاحبه ، وخرجت منه بشىء

***

يبدأ أوراق الورد بمقدمة بليغة فى الأدب يتحدث فيها عن تاريخ رسائل الحب فى العربية بأسلوب هو أسلوب الرافعى ، وإحاطة هى إحاطته ، وسعة اطلاع لا تعرفها لغيره ؛ وهذه المقدمة وحدها هى باب فى الأدب العربى لم ينسج على منواله ولم يكتب مثله ، تذكر قارئها ذلك النهج البارع الذى نهجه الرافعى العالم المؤرخ فى كتابه « تاريخ آداب العرب » فكان به أول من كتب فى تاريخ الأدب وآخر من كتب ...

وتأتى بعد هذا الفصل مقدمة الرسائل ، وفيها سبب تسمية الكتاب ، وهو شىء مما كان بينه وبين صاحبته ؛ يقول إنه كان فى مجلسها يوماً ومعها وردة ؛ فأخذت تحدثه عن الحب وعمر الحب ، وعن الورد وعمر الورد ، وكأنها تقول له : إحذر أن تجعل حظك من الوردة أكثر من أن تستنشيها على بُعد من دون لمسة البنان ، واحذر فى الحب ... قال : « ثم دنت الشاعرة الجميلة فناطت وردتها إلى عروة صاحبها ، فقال لها : وضعتِها رقيقة نادية فى صدرى ، ولكن على معان فى القلب كأشواكها ... فاستضحكت وقالت : فإذا كتبت يوماً معانى الأشواك فسمها أوراق الورد ... وكذلك سماها »

ويمضى فى هذه المقدمة يتحدث عن حبه ، وآلامه فى الحب ورأيه فى الحب ، وشىء مما كان بينه وبينها ؛ ثم يتحدث عن نهجه فى هذه الرسائل ، وما أراد بها ، وما أوحاها إليه ؛ فى أسلوب كله حنين ، وكله شوق وألم

ثم تأتى بعد ذلك فصول الكتاب متتابعة على ما أوضحت طريقها من قبل : فيها حنين العاشق المهجور ، وفيها مُنية المتمنى وفيها ذكريات السالى ، وفيها فن الأديب وشعر الشاعر ؛ وفيها من رسائلها ومن حديثها ...

***

من أراد أوراق الورد على أنه قصة حب فى رسائل لم يجد شيئاً ؛ ومن أراده رسائل وجوابها فى معنى خاص لم يجد شيئاً ؛ ومن أراده تسلية وإزجاء للفراغ لم يجد شيئاً ؛ ومن أراده نموذجاً من الرسائل يحتذيه فى رسائله إلى من يحب لم يجد شيئاً ؛ ومن أراده قصة قلب ينبض بمعانيه على حاليه فى الرضى والغضب ، ويتحدث بأمانيه على حاليه فى الحب والسلوان — وجد كل شىء وهو فى الفن فنٌّ وحده ، لا تجد فى بيانه ومعانيه ضرباً له

مما أنشأ الكتاب وأنشد الشعراء فى معانى الحب ؛ على أنه بأسلوبه العنيف وبيانه العالى وفكرته السامية فى الحب ، لا يعرف قراءه فى العربية . وكم قارىء استهواه عنوان الكتاب وموضوعه فتناوله بشوق ولهفة ، فما هو إلا أن يمضى فيه إلى صفحات قليلة حتى تُسلمه يمناه إلى يسراه إلى الزاوية المهملة من مكتبته ، ثم لا يعود إليه ... وكم قارىء كان لا يعرف الرافعى الشاعر الثائر العنيف فى حبه وبغضه وكبريائه ، فلما قرأ أوراق الورد عرفه فأحبه فاستخلصه لنفسه فما يعرفه فى الأدباء إلا أنه مؤلف أوراق الورد

وكم وكم ... ولكن أوراق الورد ما يزال مجهولا عند أكثر قراء العربية وإن كان فى مكتباتهم ، لأن القارىء الذى يلذه أوراق الورد ما زال يتعلم فى المدرسة كيف يقرأ ليستفيد ويضم فكراً إلى فكره ، لا ليتسلى ويهرب من فكره ! لأن العربية ليس لها قراء ... !

ليت شعرى أفى العربية كلها شاعر يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من أوراق الورد أو يجمع معانيها فى قصيدة ؟ ابحثوا عن جمهور هذا الشاعر وقرائه يوم تسمعون قصيده ...

أرأيت إلى المنجم الذى يمتد فى الأرض ويتغلغل بعروق الذهب ؟ إنه كنز ، ولكن مَنْ ذا يصبر على المعاناة فى استخراجه والبلوغ إليه إلا أن يكون صاحب أيدٍ وقوة ؟ إنه كنز يطلبه الجميع ولكنك لن تجد فى الجميع من يقدر على استخلاصه من بين الصخور المتراكبة عليه وحواليه من طبقات الأرض إلا الرجلَ الواحد المحظوظ الذى يكون معه الصبر

إن أوراق الورد مَنْجم من المعانى الذهبية ، لو عرفه المتأدبون من شبابنا لوضعوا يدهم على أثمن كنز فى العربية فى معانى الحب والجمال يكون لهم غذاء ومادة فى الشعر والبيان

وكان الرافعى — رحمه الله — يعتز بأوراق الورد اعتزازه بأنفس ما أنتج فى أدب الإنشاء ، ويباهى ويفتخر ؛ وما أحسبه تعزّى عن صاحبته بقليل إذ تعزّى بما لقى من النجاح والتوفيق فى إنشاء أوراق الورد ؛ وكما تجد الأم سلوتها فى ولدها العزيز عن الزوج الحبيب الذى طواه الموت ، وجد الرافعى العزاء فى أطفال معانيه عن مطلّقته المنيدة ... لقد فارقها ولكنه احتواها فى كتاب !

إن الأم لا تنسى زوجها الحبيب إذا فارقها وخلّف بين يديها بضعة منه ، ولكنها تجد العزاء عنه بشىءٍ منه وإن قلبها ليخفق بذكراه فى عينى هذا الحبيب الصغير . وكذلك لم ينس الرافعى ولكنه وجد السلوان ... لقد أفلتتْ من يده ولكنها خلفتْ ذكراها معه ، ذكرى حيةً ناطقة تتمثل معانىَ وكلماتٍ فى كتاب يقرؤه كلما لج به الحنين فكأنه منها بمسمع ومشهد قريب !

رحمه الله ! لقد مات ولكن قلبه ما زال حياً ينبض يتحدث عن آلامه وأشواقه فى قلب كل محب يقرأ كتابه فيجد فيه صورة من قلبه وعواطفه وآماله ... رحمه الله !؟

« طنطا » *محمد سعيد العريان*

* * *

هنا ينتهى حديث الرافعي العاشق ، لنبدأ عنه من الأسبوع المقبل إن شاء الله في حديث جديد

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

للدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٩ —

الفلسفة الصينية

العصر المنهجي — كونفيشيوس

الأخلاق عنده

جزم أكثر المستصينين بأن غاية « كونفيشيوس » من فلسفته العملية كانت إصلاح الهيئة الاجتماعية فى عصره ، وإحداث تجديد أخلاقي وعمراني وسياسي فى الدولة ، ولكن العالم المحقق « زانكير » يرى أن هذا غير صحيح ، ويصرح بأن حكيمنا لم تكن له غاية أخرى غير تحقيق الواجب فى ذاته ، وأن النظريات التى ترمى إلى المنفعة أو إلى السعادة أو التى تعلل الأمر والنهى الأخلاقيين بعلة خارجة عن الواجب لا أثر لها في مذهبه وهو فى هذه الناحية يشبه « كانت » فى رأى الأستاذ « زانكير » إذ كلاهما يأمران باتباع الواجب لذاته لا لشيء آخر ، وهو يستدل على صحة رأيه بالنص الآتى من كلام « كونفيشيوس » فى كتاب « لون — يو » : « إن الحكيم يتعطش إلى الفضيلة ، والرجل العامى يتحرق إلى اللذائذ المادية ، وإن الحكيم يعنى بأن يلاحظ الواجب ويذعن له ، والرجل العامى لا يهتم إلا بأن يتصيد ما فيه من فوائد ، وإن الحكيم لا يفهم فى العموم إلا الواجب ، أما العامى ، فهو لا يفهم إلا منفعته »[1]

لا ريب أن هذا النص يؤيد الأستاذ « زانكير » فيما ذهب إليه ، لأنه صريح فى أن الحكيم لا يأبه إلا للواجب فى ذاته ، وأنه إذا حاد عن هذا الطريق فا كترث بأى شيء آخر كلذة أو منفعة هوى إلى صفوف العامة والجماهير ، والآن وبعد أن أثبتنا أن « كونفيشيوس » كان فى مقدمة القائلين بـ « الفيذاتية » المطلقة ، نريد أن ندرس مذهبه الأخلاقى على ضوء نصوصه كما هي طريقتنا دائماً فى هذه الدراسات

قال « كونفيشيوس » فى كتاب « تشونج — يونج » ما نصه : « إن الطبيعة هى الارادة الإلهية الخالدة ، وإن الحياة بحرية أو اتباع الطبيعة هو واجب الانسان أو « تاوو » ، وإن معرفة الواجب هى الدين نفسه . إن الواجب هو ذلك الشيء الذى ليس بمسموح لأحد إبعاده لحظة واحدة ، لأنه لو سمح بالبعد عنه لحظة لما أصبح هو الواجب ، ولهذا يعنى الحكيم فى شيء من الانتباه بما لا يرى فى داخله ويخشى فى شيء من القلق ما لا يسمعه بأذنه ، ويجب ألا يعالج بالكشف والايضاح إلا ما هو مخفي فى داخل نفسه ، ويجب ألا يكون شيء أوضح لديه من أعمق طيات قلبه ، ولأجل ذلك يلتى الحكيم بنفسه بين أعطاف هذه المعالجات التوضيحية كلما خلا بنفسه ، وحينما تكون النفس غير مهتاجة بأحاسيس حب أو غضب أو حزن أو سرور يقال عنها إنها فى حالة الاعتدال أو « تشونج » ، وحينما تتولد هذه الأحاسيس فى النفس دون أن تتجاوز الحد المعتدل ، قيل عن هذه النفس : إنها فى حالة الانسجام « تاوو » وإذاً ، فالاعتدال هو الأصل ، والانسجام هو القانون العام ، وحينما يلحق الاعتدال والانسجام غايتهما يسود النظام فى السماء وعلى الأرض ، وتنمو جميع الكائنات »

من هذه النصوص يتبين مذهب هذا الحكيم فى الأخلاق جيداً ، وتتضح فكرته عن الواجب والاعتدال والانسجام ، ومن الجملة الأخيرة بنوع خاص نلمح مذهب « كانت » قبل وجوده بأكثر من أربعة وعشرين قرناً ، وهو القائل بأن الاعتدال هو أصل أساسى فى النفس ، وبأن الحيدة عن الصراط المستقيم طارئة على الانسان بسبب أحاسيس الحب والبغض والغضب والرضى والسرور والحزن ، وبأن الحرية الأخلاقية هي منشأ المسئولية ، وبأن الانسجام ضرورة سماوية لبقاء العالم ونموه وسيره نحو الكمال وما أقوي الشبه بين نص « كونفيشيوس » القائل : « وحينما يلحق الاعتدال والانسجام غايتهما يسود النظام فى السماء وعلى الأرض ، وتنمو جميع الكائنات » ونص « كانت » القائل : « إن كل ما لو عم لصلحت الأرض هو الخير ، وكل ما لو عم لفسدت الأرض هو الشر »

بل ما أحكم الصلة بين نص « كونفيشيوس » القائل : « إن

(١) راجع كتاب « لون — يو » فصل ٤

الاعتدال هو الأصل والانسجام هو القانون العام » وبين نص « كانت » القائل : « إن إرادة كل فرد عاقل معتدل هي المؤسسة للقانون العام »

يرى « كونفيشيوش » كما يرى « كانت » أن كل إنسان إذا حقق الانسجام الطبيعي وثبته في داخل نفسه كما شاءته الارادة الإلهية ، فقد حقق الواجب ، وهو يرى كذلك أن الحرية النفسية يجب أن تسبق تأدية الواجب ، وأن الارادة البشرية ليست موفقة دائماً لتحقيق الواجب ، وأنها تستطيع أن تبتعد عنه ، ولكن ليس معنى هذا الابتعاد أن يتغير الواجب ، كلا ، بل هو كما تبعته الارادة البشرية أو لم تتبعه ، وهذا يدل — كما يرى الأستاذ « زانكير » — على أن قانون الأخلاق هو معتبر في ذاته أو هو مطلق عام لا شخصي مقيد ، ولولا ذلك الاطلاق وهذه العمومية لما كان قانوناً أخلاقياً لكل أفراد الانسانية ، بل للسماء والأرض.

وعنده أيضاً أن جميع أفراد بني الانسان متساوون أمام هذا القانون الأخلاق ، وأنه في درجة من الوضوح لا تخفى على أي فرد ، لأن العلم به فطرى ، وهو يرى لذلك أن الواجب لا غاية له إلا ذاته ، وأنه إذا لوحظت في تأديته غاية أخرى من منفعة أو لذة أو أية غاية أخرى ، خرج عن كونه واجباً عاماً وأصبح غير صالح للجميع ، لأن الناس يختلفون في غاياتهم الشخصية ، فاذا أخضعنا الواجب لبعض تلك الغايات المتباينة لم يعترف به الآخرون الذين ليس لديهم مثل هذه الغايات ، وبهذا يفقد كل شيء

وعنده أيضاً كما عند « كانت » أن العمل إذا قصد به غير وجه الواجب سقطت قيمته الأخلاقية وأصبح نفعياً ، وأن اتباع الارادة للواجب يصيرها سامية فوق اعتبارات الحياة العامية ، وأن الحكيم يشعر في داخل نفسه عند أداء الواجب بأقصى أنواع السعادة ، وهو في كل هذا يقول : « إن الانسان ذا الأخلاق الكاملة (چين) هو الذي يقدم المتعب المضني على النافع اللذيذ ولا يلتفت عند أداء الواجب إلى ما سيستفيده منه (١) » ويقول أيضاً : « إن الانسان بدون الأخلاق لا يستطيع أن يحتمل الفقر ولا الغنى وقتاً طويلا . وإن الأخلاقي يجد في الأخلاق كل ترضية وإن الحكيم لا يصيره شرها نهما إلا كنز الفضيلة (٢) »

(١) كتاب « لون — يو » فصل ٦
(٢) كتاب « لون — يو » فصل ٤

لا ريب أن عدم احتمال الفقر عند غيبة الأخلاق أمر مفهوم لأن من تعوزه فضيلة الصبر يتعذب بمرارة الفقر ، أما عدم احتمال الغنى في تلك الحالة فلعل الحكيم يقصد به أن الغنى في حالة فقد الفضيلة خطر لا يحتمله حتى صاحبه . بقي علينا الآن أن نشرح كلمة « چين » الواردة في هذا النص الذي أسلفناه لك كما فهمها المستصينون ، ومعناها : الأخلاق ، أو الواحد لأجل الجميع ، أو الفرد للمجموعة

وجه بعد ذلك سؤال إلى « كونفيشيوس » من معاصريه قالوا له فيه : كيف يتبع الانسان الواجب دائماً ؟ وما هي الوسيلة العملية لتحقق هذا الواجب ؟ وما هو ذلك الصوت الذي تقول إنه ينادي دائماً بالاذعان للواجب ؟ وأي ضمان يطمئن الانسان على أنه سائر دائماً في طريق الواجب ؟ فأجاب بقوله : إن الطريق العملي لتحقق الواجب هو الاذعان لهذا الصوت الداخلي ، وإن الضمان المطمئن هو إدمان مراقبة النفس حتى يكشف جميع دواخلها ، فاذا حصل للفرد هذا الكشف وصل إلى درجة الحكمة ، لأن القلب حينما يقوده الهوى ينسحب إلى الشر دون أن يشعر فيصبح الانسان يرى ولا يبصر ويسمع ولا يعقل . والعلة في هذا هي أن العواطف والأهواء تسود أعمالنا وتمنعنا من أن نحكم أحكاماً صحيحة على أنفسنا وعلى العالم الخارجي .

أحسب أن الباحث لا يجد عسراً في ربط هذا الجواب الأخير بقول حكيم اليونان الأول : « إعرف نفسك بنفسك » تلك الحكمة التي وجدها « سقراط » — فيما تقول الأساطير الاغريقية — مكتوبة بالذهب على عتبة معبد « دلفي » واستغلها فكانت أساساً صالحاً لفلسفته وفلسفة تلميذه العظيم « أفلاطون » بل إنها ظلت تتغلغل ساطعة في غيابات المستقبل حتى كانت أحد أسباب جلال « ديكارت » وخلوده حيث صرح بعد اثنين وعشرين قرناً بقوله : « إني لما كشفت الأنا حملت مصباحه الذي على سناه كشفت كل اللاأنا »

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل إن الأستاذ « زانكير » يرى أن فلاسفة اليونان الذين قالوا بمبدأ « إعرف نفسك بنفسك » لم يتنبهوا إلى العقبات التي تعترض سبيل الانسان عند ما يحاول هذه المعرفة ، وهو يصرح بأن « كونفيشيوس » إن لم يزد على أولئك الفلاسفة في هذه النقطة فهو من غير شك يساويهم فيها . وبناء على ذلك ، فالقائلون بأن « كونفيشيوس »

حتى لو كان قد تنبه إلى معرفة النفس بالنفس فانه قصر فى معالجة العقبات الناشئة من هذه المحاولة هم على خطأ فى هذا الرأي ، لأن تلك العقبات لم يعرض لها إلا علماء النفس فى العصور الحديثة . وإذن ، ففلاسفة الاغريق وحكيم الصين فى هذا الموقف متساوون

يختلف « كونفيشيوس » مع « لاهو — تسيه » في وسيلة الوصول إلى الكمال الخلقى ، فأما « لاهو — تسيه » فهو يرى أن التأمل النفسانى كاف لوصول الانسان إلى الكمال أو إلى تحقيق الانسجام المطلق فى جميع حركاته . والانسجام عنده هو المسمى بالسكون الطبيعى الذي لا ينقصنا إلا حينما ننشغل بالظواهر ، ومتى فصمنا عرى صلاتنا بها عاد إلينا . أما « كونفيشيوس » فيرى أن من المستحيل قطع صلاتنا بالظواهر الخارجية ، وأن كل محاولة فى هذا السبيل فاشلة ، وأن الانسان لا يصل أبداً إلى الانسجام المطلق فى جميع حركاته ، وإنما يصل إلى انسجام نسبى يقترب من الاطلاق بعض الشيء ، وأن التأمل وحده ليس كافياً ، وإنما يجب أن تضم إليه الثقافة والمعارف الخارجية ، بل إن الثقافة هي الجوهر الأساسى للوصول إلى المعرفة والفضيلة الكاملتين ، وهو لهذا يقول : « إن الشغوف بالدراسة يمنح فضيلة الحكمة ، وإن من يقوم بمجهود يمنح فضيلة حب الانسانية ، وإن الذى يحمر وجهه خجلا من أنانيته يمنح فضيلة القوة [1] » وهذه الفضائل الثلاث هى عنده الواجب أو ضروريات الكمال . وهو يرى أن الدراسة المحققة للثقافة والفضيلة يجب أن تتناول حقائق الأشياء : معنوياتها ومحساتها تناولا دقيقاً مؤسساً على النقد الذى لا يعرف هوادة ولا ليناً ، ولا يخضع لرحمة ولا عاطفة ولا هوى ، فاذا نبت الدراسة عن هذه العوائق أنتجت أسمى النتائج وأرقاها . وفى هذا يقول : « حينما تدرس طبيعة الأشياء عن قرب وبانتباه تصل المعرفة إلى أعلى أوجها . وحينما تبلغ المعرفة أقصى أوجها تصبح الارادة كاملة ، وحينما تصبح الارادة كاملة تصير حركات القلب منظمة متفقة مع القانون . وحينما تصبح حركات القلب منظمة يتخلص الانسان من الآثام . وبعد أن يتخلص الفرد من الآثام يشرع فى توطيد دعائم النظام والانسجام فى الأسرة . وإذا ساد الانسجام فى الأسر بلغ الحكم فى المدينة درجة الكمال ، وإذا بلغ الحكم

(١) كتاب « تشونغ — يونغ » فصل ٢٠

فى المدينة حد الكمال استمتعت الامبراطورية بالسلام التام [1] »

أحسب أنه بعد كل الذي قدمناه من آراء هذا الحكيم القيمة وبعد هذه الموازنة التى أسلفناها بينه وبين أولئك الفلاسفة القدماء والمحدثين لامعنى لأن يغمطه بعض الباحثين الغربيين حقه فيرموه تارة بأنه ليس فيلسوفاً ، وأخرى بأنه عملى أو نفعي . وأحسب كذلك أنه لا ينبغى أن نتأثر فى حكمنا على هذا الفيلسوف بذلك التشويه الذى أصاب مذهبه بعد عصره ، بل يجب علينا أن نضع نصب أعيننا ذلك السمو الفلسفى ، والنبل الأخلاقى اللذين تفيض بهما مؤلفات « كونفيشيوس » وأن نذكر دائماً أنه وضع للمتفلسف ثلاثة شروط أساسية ، الأول الاخلاص الكامل فى كل ما يخطوه من خطوات علمية أو عملية . الثانى البدء بدراسة (الأنا) ليتوصل به إلى كشف كل (اللا أنا) . الثالث الدراسة النقدية العميقة لجميع الأشياء الخارجية . فاذا لاحظنا كل هذا جزمنا بأن كل من لا يسمو بهذا الفيلسوف إلى الصف الأول من صفوف مفكرى الانسانية كان غير موفق فى دراسته وحكمه

« يتبع » محمد غلاب

(١) كتاب « تايو » فصل ٥





رسالة الشعر



الليـــــل ...

للأديب محمود السيد شعبان

أَسْبِلْ على الدُّنيا سُتُورَ الكَرَى   وَلُفَّها يا ليلُ فى ظُلْمَتِكْ !!

الصَّمْتُ فى وادِيكَ حَيٌّ يُرَى !   والوَحْدَةُ الخرْساءُ فى عُزْلَتِكْ !

* * *

والموْتُ فى نادِيكَ يَرْعَى البَشَرْ   ياموْطِنَ الهُلْكِ وَمثْوَى النَّهَمْ !

وفِى دياجِيكَ يَطِيشُ القدَرْ   وَيفْتِكُ الهمُّ ويَطغَى السَّأَمْ !

* * *

أأنْتَ مَعْنىً مِنْ مَعانِي الرَّدَى   أَمْ أَنتَ طَيْفٌ مِنْ طُيُوفِ المَلَلْ ؟

قدْ ضَاعَ فى وَادِيكَ عُمْرِى سُدَى   وما جَنَتْ كَفَّايَ إلاَّ العِلَلْ !

* * *

ياموْطِنَ الأَشْباحِ يا ابْنَ العَدَمْ   ما أنا مَنْ يخشاكَ أَوْ يَرْهَبُكْ !

وفى فؤادِي غَيْهَبٌ مِنْ أَلَمْ   يَرْوِى دُجاهُ بالأَسَى غَيْهَبَكْ !

* * *

أطَلْتُ يالَيْلُ إِلَيْكَ النظَرْ   فَمَا رَأَتْ عَيْنَاىَ شَيْئاً يُرَى !!

يَا وَيلتَا لِى كيْفَ أَهْوَى السَّهَرْ
وكلُّ مَنْ فِى الأَرْضِ يَهْوَى الكَرَى ؟

يا لَيْتَ شِعْرِى هَلْ جفَانِى البَشَرْ
أَمْ أَنَّنِي وحْدِى جَفَوْتُ الْوَرَى ؟

* * *

يا نَجْمُ ماذا فى الدُّجَى أَعْجَبَكْ   واللَّيْلُ يا نجمُ عُبَابُ القدَرْ ؟!

أأَنْتَ يا نجمُ تُحِبُّ الحَلَكْ   أَمْ أنتَ مِثْلِي مُولَعٌ بالسَّهَرْ ؟

* * *

ياساهِداً لَمْ يَدْرِ مَعْنَى الكَرَى   كُنْ مُؤْنِسِي إنِّي وَحِيدٌ هُنَا !!

أَمَا تَرَانِي قدْ هَجَرْتُ الوَرَى ؟   فَلَيْتَنِي أَسْطِيعُ هَجْرَ الدُّنَا !

* * *

أَلِيَّةً يا نَجْمُ قُلْ لِلسَّحَرْ :   تعالَ إنِّى قدْ سَئِمْتُ الغَلَسْ !!

مافي الدُّجَى مِنْ مُتْعَةٍ لِلْبَصَرْ   وليْسَ فى وَادِيهِ إلاَّ الخرَسْ !!

* * *

يا رَاقِدًا حَفَّتْ بِهِ العَافِيَهْ   ودَاعَبَتْ أَجْفَانَهُ الحَالِمَهْ .. !

أَلَمْ تُثِرْ أَشْجَانِيَ الباكِيَهْ   لَفْحَ الأَسَى فى نَفسِكَ النَّاعِمَهْ ؟!

* * *

عَلَى سَرِيرِ الوَرْدِ نَمْ إِنَّنِي   على سَرِيرِ الشَّوْكِ أَسْتَشْهِدُ !!

أُرِيدُ أَنْ أَبْكِى فَلَا تَلْحَنِي   لَعَلَّ هَذَا الدَّمْعَ لِي يُسْعِدُ !!

* * *

نَمْ يا حَبِيبِي لا يَرُعْكَ الأَسَى   ما أنا فى الظَّلْمَاءِ إلاَّ شَبَحْ !!

أَوْ زَوْرَقٌ في بَحْرِهِ مَارَسَا !   أَوْ تَائِهٌ عَنْ دَارِهِ قَدْ نَزَحْ !

* * *

نَمْ يا فُؤَادِى كلُّ شَيْءٍ هُنَا   أَغْفَى عَلَى أُمْنِيَّةٍ تُرْتَجَى !!

وَهَدْهَدَتْهُ بَاسِمَاتُ المُنَى   فى هَدْأَةِ اللَّيْلِ وَصَمْتِ الدُّجَى !

* * *

لَمْ تُبْقِ لِي الأَيَّامُ مِنْ مَأْمَلِ   فى حاضِرِى أَرْجُوهُ أَوْ فى غَدِى !

قدْ غَاضَتِ الآمَالُ مِنْ جَدْوَلِي   وقدْ نَفَضْتُ الآنَ مِنْهَا يَدِى !

* * *

مالي و للأَغْلَاسِ تُعْمِي البَصَرْ   ولَيْسَ لِي فى اللَّيْلِ إِلْفٌ يُرَى ؟!

نَمْ يا حَبِيبِي نَاعِماً لا تَخَفْ !   مِنْ عَابِرٍ أَضْنَاهُ طُولُ السُّرَى !

وَهَبْ لِرُوحِي قُبْلَةً مِنْ تَرَفْ لَعَلَّ عَيْني تَسْتَطِيبُ الكَرَى!

* * *

يا لَيْلُ مالِي مِنْ حَبِيبٍ فَلاَ تَسْأَلْ فُؤَادِي: فِيمَ ذِكْرُ القُبَلْ!؟
هَذَا خَيَالٌ زَائِفٌ مَا سَلاَ عَنْ ذِكْرِهِ قَلْبٌ يُحِبُّ الغَزَلْ!

* * *

يا وَهْمُ ما أَحْلاكَ مَوْهْ مَعِي عِشْنِي بِأَطْيَافِ الرُّؤَى الخادِعَهْ!
وَاسْكُبْ لُحُونَ البِشْرِ فِي مَسْمَعِي
وَامْلأْ حياتِي بالمُنَى الرَّائِعَهْ!

* * *

يا وَيْحَ قلبي مَاتَ فِيهِ الهَوَى وما تَبَقَّى مِنْهُ غيرُ الخَبَلْ!!
وَكَانَ مَا كَانَ فَلَمَّا انْطَوَى مَضَى الرِّضَى عنهُ وغاضَ الجَذَلْ!

* * *

وهَامَ في الظلمة بِي يَسْأَلُ: أَيْنَ الهوى يا لَيْلُ أَيْنَ المرحْ؟!
يا قلبُ لا تَسْأَلُهُ مَا يَجْهَلُ! وَدَعْ لِمَنْ ضَلَّ الأَسَى والتَرَحْ!

* * *

يالَيْلُ دَعْني قَدْ دَهَانِي القَلَقْ! وَحَطَّمَتْنِي عادِيَاتُ القَدَرْ!!
وَارْحَلْ فقد يَذْهَبُ عَنِّي الأَرَقْ إنْ أَنْتَشَتْ رُوحِي بِعِطْرِ السَّحَرْ!

* * *

قَدْ أَقْبَلَ الفجرُ فَلاَ تَيْأَسِي! ماضاعَ يا نَفْسِي اصْطِبارٌ سُدَى!
وَأَغْمِضِي جَفْنَيْكِ ثُمَّ انْعَسِي! وَلَا تَخَافِي إِنْ أَتَاكِ الرَّدَى!!

« الاسكندرية » محمود السيد شعبان

على زهرة ذاوية

للسيد جورج سلستي

عَبَثَتْ برونقها يدُ الدهرِ وبدا البِلَى بعروقها يَسرِي
وتناثرتْ أوراقُها — وَثَوتْ فوق الثرى — كتناثرِ الدرِ
لهفِي على حسنٍ تصوّحَهُ أيدى العفاءِ وسطوة الغدرِ
كانتْ تزينُ الروضَ روعتُها وتضمّخُ الأرجاءَ بالعطرِ
كانت وكان الفجرُ يعبدها بين الرياض ولم تكنْ تدرى
جاسَ الغرامُ فؤاده وكوى منه الضلوعَ بلمسهِ السحري
فبدا له، فأراقَ مهجتَه فيها، فكانتْ دمعةَ القطرِ
ليس الندى إلاّ دماه، ألا لله من فعل الهوى العذري

* * *

يا زهرة روَّيتُها بدمى وسقيتُها بمدامعي الحمرِ!
نامي بحضنِ الأرضِ هانئةً إنَّ الردى خيرٌ من العمر!
انَّ الحيــاةَ لمرَّةٌ أبداً ملأى من الآثام والشرِّ!
أسقتنيَ الأيامُ من مَدَرٍ وغذتنيَ الأقدارُ بالمرِّ
صافَ[1] الهناءُ، وقد نفرتْ منى السعادةُ كالظبا العُفرِ
قد كان لى يا زهرتى أملٌ لكنما أودى به دهري
وحبيبةٌ كالصبح طلعتُها غدرتْ كأنَّ الحسنَ بالغدرِ
يا زهرتي، يأتى الربيعُ غدا وينمّق الجنّاتِ بالزهرِ
نامى بحضنِ الأرضِ حالمةً بمجيئهِ، وببسمةِ الفجرِ
لكنَّ آمالى وقد غربتْ ليست تعودُ؛ غلبتُ فى أمري
لك فى مماتكِ عودةٌ وأنا بعد المماتِ أظلُّ فى قبري!

« بيروت » جورج سلستي

الأســـرار

للأستاذ إيليا أبو ماضى

ياليتنى لص لأسرق فى الضحى سرّ اللطافة فى النسيم السارى
وأجس مؤتلق الجمال بأصبعي فى زرقة الأفق الجميل العارى
ويبين لى كنه المهابة فى الربى والسر فى جذل الغدير الجارى
والسحر فى الأنغام والألوان والا أنداء والأشذاء والأزهار
وبشاشة الموج الخصيب ووحشة الـــوادى الكئيب وصولة التيار
وإذا الدجى أرخى علىّ سدوله أدركت مافى الليل من أسرار
فلكم نظرت إلى الجمال تخلته أدنى إلى بصرى من الأشفار
فطلبته وإذا المغالق دونه وإذا هنالك ألف ألف ستار
باد ويعجز خاطرى إدراكه وافتنني بالظاهر المتوارى!

ايليا أبو ماضى

---

(١) صاف: نأى وبعد



الزنـــــك
كعنصر أساسى لنمو النبات

للأستاذ عبد الحليم منتصر

تتمة

بينا فى المقال السابق الأعراض التى تبدو على النبات المحروم من عنصر الزنك من بين ألوان غذائه ، وأتينا على طرائق علاج هذه الحالات المرَضية التى تعتريه بإعطائه حاجته من هذا العنصر، ووعدنا بتفصيل العلاقة بين طبيعة التربة وصفاتها الكيميائية وبين سير هذا المرض وتأثر النبات به ودرجة احتماله إياه ومقاومته له . فقد ثبت من التحاليل الكيميائية الدقيقة التى أجراها « هبرر » و « إلين » و « بوجز » أن النبات لا يستخلص كل الزنك الذى بالتربة ، ولكن لسبب ما — لعله الحموضة أو القلوية الموجودة أكثر من اللازم — يجعل التربة تحبس زنكها عن النبات، فإذا كانت قلوية كان السبب عدم ذوبان مركبات الزنك فى هذا المحلول القلوى . وإذا كانت حامضة كان السبب عدم سهولة الاحتفاظ بالزنك فى المحلول بالتربة ، ويكون آنئذ سريع الانتشار . فمن ذلك نرى أن هناك علاقة بين ظهور أعراض المرض وبين درجة الحموضة أو القلوية للتربة ، بمعنى أن المرض يظهر ويشتد فى درجة حموضة أو قلوية خاصة ، على حين لا تبدو آثاره فى درجة أخرى . فقد وجد أنه إذا كانت درجة القلوية من ٧ إلى ٧ر٣ تكون أعراض المرض شديدة جداً ، بل يندر أن ينجو من خطره أقوى أنواع النبات احتمالاً ، لأن درجة احتفاظ التربة بالزنك فى هذه الحالة تكون ضعيفة مسرفة فى الضعف . أما إذا كانت هذه الدرجة من ٨ إلى ٩ فى أرض طينية ، فإنه يندر أن تتأثر الأشجار كثيراً بنقص الزنك ، لأن مثل هذه التربة تحتفظ بالزنك إلى درجة كبيرة ، وهى فى الوقت نفسه لا تحبسه عن النبات

ومن العوامل الطبيعية التى تؤثر فى سير المرض حرارة الجو وكمية الضوء ، فهو فى الشتاء حين الحرارة منخفضة وكمية الضوء قليلة ضعيف الانتشار ؛ وعلى نقيض ذلك تكون الحال فى الصيف

وهناك من الحقائق ما يثبت أن فى التربة المصاب نباتها من العوامل ما يمنع الجذر من امتصاص الزنك ، أو المساهمة فى نقله إلى قمم الأشجار أو سائر أعضاء النبات . وقد وجد فى بعض الأشجار التى تعاقبت على إصابتها السنون دون علاج أن كثيراً من أجزاء الجذر قد ماتت فعلاً . والمرجح أن عنصر البوتاسيوم لا يلبث أن يخرج من قلف الجذر فى النبات المصاب ، فقد ثبت أن ما به منه لا يتجاوز ١٠ إلى ٢٥ ٪ من البوتاسيوم الموجود بقلف الساق أو بقلف جذر نبات سليم أو معالج بالزنك . وبما أن الزنك يتحد بمركبات عضوية ، ويكون أحد مقوماتها غير العضوية ، فربما كان خروج البوتاسيوم يساعد على استمساك الجذور بزنكها واحتفاظها به ، فلا يتصاعد إلى القمم . وكانت نتيجة التحاليل الكثيرة التى أجريت إثبات تجمع الزنك بالجذر فى بعض الحالات

على أن الواقع أن معالجة الأشجار بالرش ، أو بإيلاج قطع الزنك فى الفروع دون التعرض للتربة ، من شأنه أن يشفى النبات ويجعله فى حالة جيدة ، مما يدل على أن الجذر برغم عدم جعل العلاج عن طريقه مباشرة ، يقوم بوظيفته الطبيعية فى سهولة ويسر

ومن الاحصاءات البديعة ، ما قدمه « باركر » عندما قارن بين الأشجار المعالجة برش الزنك وتلك التى لم تحظ بهذا العلاج ، إذ وجد أن الشجرة المعالجة قد أعطت ٤٧٧ رطلا من

الثمار على حين كان ما أنتجته الثانية لا يزيد على ٥٦ رطلا فقط؛ وذلك فضلا عن أن ثمار الأولى أكبر حجما وأجمل منظراً، وهي بالتالي أسرع نفاداً في السوق، لكثرة الاقبال عليها من المستهلك. كذلك وجد «باركر» في حالة البرتقال (أبو سرة) أن محصوله قد تضاعف فأصبح ستة أمثاله قبل العلاج

وقد بينا أنه في حالة وضع قطع من الزنك في الفرع تظهر آثار العلاج في الجزء من قمة الفرع إلى مكان الزنك فيه، نمواً وإزهاراً وإثماراً على حين يكون الجزء الأسفل ما يزال يعاني آثار المرض، وإن ثبت أن بعض التحسن يبدو عليه بعد ذلك كنتيجة لاطراد التقدم سنة بعد أخرى، وذلك من آثار الصحة والنشاط التي ستتبدى في الأوراق بعد العلاج، فيعم خيرها على النبات كله بالتدريج.

وقد أوضح بعض الباحثين منهم «آرك» و «هجلاند» الأثر الذي تنتجه الكائنات الدقيقة التي توجد بالتربة في ظهور هذا المرض أو اشتداد آثاره، تلك التي كانت نتيجة إبادتها بالفورمالين أو الحرارة أو الأثير زوال الأعراض السالفة أو تخفيف بعض آثارها مما يدل على أن لهذه الكائنات فعلا في إظهار المرض وسيره. ولكن الواقع أن معالجة التربة بهذه الطرائق أي المطهرات أو الحرارة غير متيسرة إلا في الصُّوَب (بيوت زجاجية لتربية النبات) ولذلك فهي غير مجدية في الحقول أو الحدائق. أما إضافة الزنك إلى التربة فإنها أكيدة النفع محققة الغرض

على أننا نتساءل الآن: ماذا عسى أن يكون هذا الدور الذي يلعبه الزنك في النبات؟ فالمعروف أن لكل عنصر يدخل النبات دوراً يقوم به في تغذيته وتركيبه، أو في العمليات الفسلجية التي تجري به. ولما كانت نسبة الزنك في النبات ضعيفة جداً خصوصاً إذا قورنت بأي عنصر من العناصر الأخرى، فهي لا تكاد توازي جزءاً واحداً لكل ألفين أو ثلاثة آلاف جزء من الأزوت مثلا. بيد أن نقص الزنك أنتج مرض حرمانه كما رأينا من الآثار السيئة الشديدة التي تصيب النبات من هذا الحرمان. وذلك رغما من أن الزنك لا يدخل دائماً في تركيب البروتبلازم أو مركباته، كما هي الحال مع الفسفور أو الكبريت أو الأزوت. والمعتقد أن للزنك دوراً هاماً يقوم به في بعض العمليات الفسلجية بالنبات، وخاصة عمليات التأكسد التي لولاها لتكونت مواد ثانوية ضارة هي التي تؤخر النمو وتكون السبب في ظهور البقع والأوراق الصغيرة المحمرة وغيرها من الأعراض؛ كما أن له أثراً آخر قد لا يقل عن سالفه، وهو أن مركب الزنك يعتبر عاملا مساعداً يسرع بالعمليات الكيميائية وخاصة ما يتصل منها بالمواد الكربوايدراتية. ودليلنا على ذلك شدة الأعراض في الصيف إذ يكون اليوم طويلا فتتجمع المواد النشوية، كذلك في حالة الأشجار التي تتساقط أوراقها شتاء؛ فهذه الأعراض تبدو قوية الأثر آنئذ بسبب تراكم المواد النشوية فتتحسن حالته في أوائل الربيع، وذلك عندما يأخذ النبات أهبته ويستأنف نشاطه، فيستغل ما تجمع فيه من مواد لنموه. وقد ظهر من المشاهدات والبحوث العديدة التي أجريت في هذا الصدد أن عنصراً غير الزنك لا يستطيع أن ينتج نفس الأثر أو يمنع عوارض المرض، فقد استعملت مركبات الكوميوم والزئبق والفضة والنيكل والكروم والبورق والتيتانوم فكانت النتائج سلبية. وكذلك الحال باستعمال مركبات الصفيح والزركونيوم والتنجستن والموليبدنوم

من هذه الحقائق مجتمعة، يصح لنا أن نعتقد أن الزنك عنصر أساسي للنبات، سواء منه الفطريات أو النباتات الراقية. وإن من المناسب إضافته إلى ثبت العناصر الأساسية الهامة التي تلزم لكي يحيا النبات حياة طبيعية هادئة، وحتى تستقيم له أسباب نموه وإيراقه وإزهاره

ولعل الصعوبة التي كانت تحول دون هذا الاعتبار إنما ترجع إلى الحقيقة الواقعة من أن كمية ضئيلة منه تكفي، ثم إنه من السهل وجود مثل هذه الكمية في المركبات الكيميائية المختلفة التي توجد بالتربة أو التي تضاف إليها، وذلك لأن مركباته ذائعة الانتشار جداً مع المركبات الأخرى عند ما تكون غير نقية، أو غير تامة النقاء. ولقد رأينا كيف أن عدم وجود الزنك بين عناصر الغذاء يسبب مرض الحرمان الذي أشرنا إليه في هذا الحديث، وإن علاجه يكون بالاضافة إلى التربة، أو في ثقوب بالجذع والفروع، أو بدق مسامير مطلية بالزنك، أو برش مركبات



من روائع القصص الواقعى الاسلامى

عمار بن ياسر

للأستاذ درينى خشبة

« يا ابن سمية ، لايقتلك أصحابي ، ولكن تقتلك الفئة الباغية ! »
(حديث شريف)

— ١ —

« عير من اليمن »

الحارث — ولم لاتعود معنا يا أخانا إلى اليمن ؟

ياسر — اليمن وطنى ، ولكنى والله أشم ريحاً بمكة لاتهب إلا من السماء ؛ وإن قلبى ليهفو إلى مسراها . فاذهبا أنتما حتى يأذن الله !

مالك — يا أخانا ، أنأتى إلى الحجاز لنعود أربعة إن وجدنا أخانا الضائع ، فلا نعود إلا اثنين ؟ أى ريح هذه التى تهب من السماء وإنك لتهفو إلى مسراها ؟

ياسر — والله يا ابن أم ما أدرى . وأكاد أنصح لكما ألا تعودا أدراجكما حتى تنشقها جميعاً ...

(*) انتفعنا فى هـذا البحث بمقال للعلامة « شاندلر » نشر فى الغازيتة الباتية .

الزنك على الأوراق والفروع . أما المقدار الذى يضاف إلى التربة فانه يختلف تبعاً لطبيعة التربة والنبات والكائنات المجهرية التى بالتربة . كما أن المرجح حتى الآن أن الدور الذى يقوم به الزنك فى العمليات التى تجرى بالنبات هو دور العامل المساعد فى بعض التفاعلات التى تتصل بتمثيل المواد الكربوايدراتية (١)

عبد الحليم منتصر
ماجستير فى العلوم

مالك — بل تبقى أنت ونرحل نحن غداة غد ...

ياسر — ومع ذاك فلا أحبّ إلى من أن تبقيا !

الحارث — بل تبقى أنت ونرحل نحن

— ٢ —

« فى مضارب بنى مخزوم »

ياسر لأعرابى — عم صباحاً يا أخا العرب

الأعرابى — عم صباحاً ! من أنت ؟ ومن أى البطون أقبلت ؟

ياسر — أنا رجل يمنى أقبلت فى عير مع أخوَىّ لنبحث عن أخ لنا رابع أبِق

الأعرابى — ما عن ذاك سألت !

ياسر — بلى ، وأريد أن أحالف (١) سيد هذه العشيرة . فمضارب من هيه ؟

الأعرابى — مضارب سيد العرب أبى حُذيفة بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم (٢) وإنه لقادم فالقه إن شئت !
(يقبل أبو حذيفة)

أبو حذيفة — ممن الرجل وماذا يبغى ؟

ياسر — يمنى يعربى قحطانى يبغى أن يحالف سيد العرب فيخلص له !

أبو حذيفة — على عهد بَعْل وهُبَل !

ياسر — ... ! ...

أبو حذيفة ينادى : يا كعب ... يا كعب ... خذ الرجل فاعهد إليه بالإبل !

— ٣ —

أبو حذيفة — وحق بَعل وهُبل يا ياسر إنك للمخلص الأمين ، وإنى مزوجك أمتى الجميلة العاقلة سُمية هذه

ياسر — ... الحمد لله !

(١) يعاهد ويلزم ، كناية جميلة عن الرق
(٢) الطبرى ج ١٣ ص ١١

أبو حذيفة — ... بل لِهُبَل !

ياسر — الحمد لله لى ولك ياسيدى على ما رزقنى

أبو حذيفة — إحمد هُبلاً ، واحمد بعلاً يا ياسر ، فإنهما الإلـهان !

— ٤ —

« فى مقابر بنى مخزوم »

ياسر — أفى هذا الثرى ترقد يا أبا حذيفة ! أما والله إنه لا بَعْل نفعك ولا هبَل ... أما والله لقد عجل بك الموت عن الطريق السُّوَى ...

عمار — ماذا تقول يا أبتاه ! ما الطريق السُّوَى ؟ ...

ياسر — والله يابنى إنا لنى زمان أظلنا فيه فَىْء نبى ، وإنى لأجد شميمه ، وإنى والله تخلفت عن أعمامك فلم أضرب بطون المطى إلى اليمن من أجل هذا ، لأن اليهود تقول إنه من قريش

عبد الله — وما بكاؤك هذا كله على أبى حذيفة ؟

ياسر — أكرم مثواى وزوجنى سمية أمكما فرزقتكما منها يا بنى ؛ وقد أعتقنى فما رضيت أن أفارقه . ولشد ما أخشى أن أهون بعده !

— ٥ —

« بيت بالصفا بلحف أبى قبيس »

ياسر — إسمعى يا ابنى ما أحلى ما يقرأ محمد والمسلمون معه !

عمار — وماذا يقرأون يا أبى ؟

ياسر — يقرأون ما يقضى إلى محمد وحيه من الله . لله ما أحلى ولله ما أعلى !

عبد الله — أليس هو من عند بَعْل يا أبتاه !

ياسر — بعل حجر لا ينطق وهم خلقوه . والله لقد حان حين بعل !

عمار — ولم لا ندخل فنقرأ معهم يا أبى ؟

ياسر — والله إنى لهذا جئت إلى الصفا يا بنى . ووالله إنى لأجد الريح التى تنشقتها مذ قدمت من اليمن . ومن أجلها استأنيت الحجاز وخالفت أخوى !

عمار — إذن نطرق الباب لنكون من السابقين !

ياسر — والله لنكونن منهم بإذن الله .. اطرق يا بنى فلقد شرح الله صدورنا لهذا الأمر (عمار يطرق الباب)

صوت من الداخل — « من ؟

عمار — مؤمنون بمحمد يريدون رسول الله !

الصوت — حُبًّا حُبًّا إخواننا فى الله !

ياسر — يدك يا رسول الله . أشهد ونبىّ أنه لا إله إلا الله وأنك رسول الله (يمد لهم الرسول يمينه فيبايعونه)

ياسر — إنطلق يا عمار فأت بسمية تشهد معنا وتغنم هذا الخير ، إن هٰهنا مؤمنات مسلمات خابتات خاشعات !

— ٦ —

« رمضاء مكة وقت الظهيرة »

« يقدم بنو مخزوم ومعهم عمار وأبوه ياسر وأمه سمية »

أحدهم لياسر — نم ياصاحب محمد ! ذق عذاب السعير الذى ينذرنا به نبيك ! (ويضربه ويضع الحجارة على صدره)

أحدهم لعمار — وأنت يا ابن الأمة ! قل كفرت برب محمد ! قل ! إخلع هذه الثياب فلنفصلن لك ثياباً من رمضاء مكة تكويك وتشويك (ينزع عنه الثياب ويقيده ويحثو التراب على رأسه)

أترى إلى هذا الجعل ؟ قل هو ربى ! قل هو خير من إله محمد ! قل آمنت ببعل وود ويغوث ويعوق وهُبل ، وكفرت بإله محمد !

عمار — بل الله الله ! الله ربى وبعل حجر أنتم خلقتموه !

(الكافر يركله ويحمى حديداً فى نار موقدة ويكويه به)

الكافر المخزومى — قل كفرت بإله محمد أو أسمل عينيك

عمار — إقض ما أنت قاض . إنما تقضى هذه الحياة الدنيا !

الكافر — أنظر إلى أبيك وأمك كيف يتعذبان ! ألا تستر أمك فتكفر بمحمد وإله محمد يا ابن الأمة !

عمار — بل يصبران لبلاء الله كما أصبر ... الله . الله . الله !

أحدهم لسمية وهو يعذبها — أنظرى يا أمة بعل ، هذا زوجك وهذا ولدك ، ألا تكفرين بإله محمد فنرسلك ونرسلهما ؟

سمية — وكيف وقد هدانى الله ؟ لعذابكما أهون من حر جهنم . بل ربى الله لا أعبد إلا إياه ...

الكافر المخزومى — وولدك هذا الذى يكوى بالنار ؟

سمية — يصبر اليوم خير من ألا يصبر غدا !

الكافر المخزومى — ولن أدعك حتى تكفرى بمحمد (يضربها على يافوخها فتحتضر)

سمية — بل ربى الله ! آمنت بالله وبرسوله (يمر رسول الله فيرى ما يقع بآل ياسر)

رسول الله — « صَبْراً آل ياسر ! موعدكم الجنة . صَبْراً آل ياسر ! موعدكم الجنة ! »

آل ياسر — لقد بعنا لك أنفسنا يا رسول الله فانظر ما يفعل السفهاء بنا

سمية — صوت مَنْ ؟ الرسول الكريم ! محمد ! آمنت بك يا محمد ! آمنت بك يا محمد ! إشهد يا محمد مايصنع بنا بنو مخزوم ...

الكافر المخزومى — تعال يا محمد نخلص عبيدك !

(ويضربها الكافر بحجر كبير على رأسها فتموت ويستعبر النبي)

الرسول الكريم — يارب . يارب . يارب !

أبو جهل (يحضر فيشهد فيقول لياسر) — يافاجر تكفر بأربابك وأرباب آبائك ؟ ها هو ذا محمد أدْعُه يمنعك !

(يمضى أبو جهل فيحثو التراب على رأس الرسول ويعود)

أرأيت ! ها هو ذا محمد ! تركت دين أبيك ياياسر وهو خير منك . لنسفهن حلمك ولنفيلن رأيك ! (يضربه ويمضى)

أبو سلمة المخزومى[1] — يالقوى ! أتقتلون أناساً أن يقولوا ربنا الله !

أبو جهل — أسكت ياأبا سلمة أو لنرجمنك ونضعن شرفك !

— ٧ —

« النبي والصحابة يبنون مسجد المدينة »

مَدَنى لأنصارى — مَنْ أخوكم هذا الرجل الآدم الطوال المضطرب الأشهل[2] الذى يحمل لبنتين ولا يحمل أيهم إلا لبنة واحدة ؟

الأنصارى — ألا تعرف من هذا ؟ إنه حبيب نبينا الرجل المؤمن الذي ما تعذب أحد من المسلمين كما تعذب ... هذا عمار ابن ياسر ...

المدنى — ومن هذا الرجل النظيف المتنظف يحمل اللبنة ويجافى بها عن ثوبه ، فاذا وضعها نفض كفيه ونظر إلى ثوبه ، فاذا أصابه شيء من التراب نفضه[3] ؟

الأنصارى — هذا الرجل الصادق عثمان بن عفان

(على بن أبى طالب يرى ما يصنع عثمان فينشد)

على بن أبى طالب :

لا يستوى من يعمر المساجدا ... يدأب فيها راكعاً وساجدا
وقائماً طوراً وطوراً قاعداً ... ومن يرى عن التراب حائداً !

(عمار يسمع علياً فيحفظ ما يقول وينشده فيسمعه عثمان)

عثمان — يا ابن سمية ما أعرفنى بمن تعرض . لتكفن أو لأعترضن بهذه الجريدة وجهك (النبي يسمع ما يقول عثمان)

عمار — جلدة ما بين عينى وأنفى ، فمن بلغ ذلك منه فقد بلغ منى ...

بعض المسلمين لعمار — إن رسول الله قد غضب فيك ونخاف أن ينزل فينا قرآن !

عمار — أنا أرضيه كما غضب ! (يقصد نحو النبي)

عمار — يا رسول الله مالى ولأصحابك ؟

رسول الله — ومالك ولهم ؟

عمار — يريدون قتلى ... يحملون لبنة ويحملون على لبنتين

(النبي ينفض عنه التراب بيديه الكريمتين ويطوف به)

النبي — وَيْح عمار ! تقتله الفئة الباغية ... يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار[1] ... للناس أجر ولك أجران ، وآخر زادك من الدنيا شربة لبن[2]

— ٨ —

« سنة ٣٧ هـ ، يوم صفين فى الفتنة بين على ومعاوية »

مجلس شورى[3]

على بن أبى طالب بعد خطباء — أيها الناس ! إنه قد بلغ بكم وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم إلا آخر نفس ، وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغوا منكم ما بلغوا ، وأنا غاد عليهم بنفسى بالغداة فأحاكمهم بسيفى هذا إلى الله !

(خطباء كثيرون يرون الحرب ويرى غيرهم الموادعة)

عمار بن ياسر — أما والله لقد أخرجها إليك معاوية بيضاء ، من أقرَّ بها هلك ، ومن أنكرها هلك . مالك ياأبا الحسن ؟ أشككتنا فى ديننا ورددتنا على أعقابنا بعد مائة ألف قتلوا منا ومنهم ؟ أفلا كان

---

(١) أحد المؤمنين السابقين من بنى مخزوم وقد هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى

(٢) هذا الكلام من وصف لؤلؤة مولاة أم الحكم بنت عمار لعمار

(٣) هذه رواية أم سلمة زوج النبي

(١) الحديث رواه النجارى وأثبت بعض القصة ابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار ج ١ وقد اعتمدنا على ما أثبته ابن عبد ربه فى العقد ج ٣

(٢) زيادة فى حديث رسول الله أثبتها معمر فى جامعه

(٣) من تاريخ ابن قتيبة

هذا (الاحتكام إلى كتاب الله) قبل السيف وقبل طلحة والزبير وعائشة ؟ قد دعوك إلى ذلك فأبيت ، وزعمت أنك أولى بالحق ، وأن من خالفنا منهم ضال حلال الدم ، وقد حكم الله تعالى فى هذا المال ما قد سمعت ... فان كان القوم كفاراً مشركين فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى يفيئوا إلى أمر الله ، وإن كانوا أهل فتنة فليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . والله ما أسلموا ولا أدوا الجزية ولا فاءوا إلى أمر الله ولا طفئت الفتنة ...

على — والله إنى لهذا الأمر كاره !

— ٩ —

« في حرب صفين »

عمار — أيها الناس! ائتونى بضياح من لبن فى قدح أروح له حلقة حمراء [1] « يشرب ويحمد الله ويقول : » إن رسول الله قال لى إن آخر شربة أشربها من الدنيا شربة لبن ... اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك فى أن أقذف بنفسى فى هــذا البحر لفعلته ... اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك فى أن أضع ظُبَةَ سيفى فى صدرى ثم أنحنى عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت . وإنى لا أعلم اليوم عملا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم أن عملا من الأعمال هو أرضى لك منه لفعلته ...

(عمار يهتف بالمسلمين من أصحاب علي)

— ألا من يبتغى رضوان الله عليه ولا يؤوب إلى مال ولا ولد ... ؟ (يقصد إليه مسلمون كثيرون فيهتف بهم)

— أيها الناس! اقصدوا بنا نحو هؤلاء الذين يبغون دم عثمان ويزعمون أنه قتل مظلوماً ؛ والله ما طلبتهم بدمه ، ولــكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبوها واستمرءوها وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه من دنياهم . ولم يكن للقوم سابقة فى الاسلام يستحقون بها طاعة النــاس والولاية عليهم فخدعوا أتباعهم أن قالوا إمامنا قتل مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة ملوكا .. تلك مكيدة بلغوا بها ما ترون ... ولولا هي ما تبعهم من الناس رجلان ... اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت ، وإن تجعل لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا فى عبادك العذاب الأليم !

(ويمضى بمن معه من المحاربين)

عمار — يا عمرو بن العاص

عمرو — مالك يا عمار ؟

عمار — تَبًّا لك بعت دينك بمصر ! تباً لك تباً ! طالما بغيت فى الاسلام عوجاً ... يا عبيد الله بن عمر بن الخطاب !

عبيد الله — مالك يا عمار ؟

عمار — بعت دينك من عدو الاسلام وابن عدوه ؟

عبيد الله — لا ، ولــكن أطلب بدم عثمان

عمار — أشهد على علمي فيك أنك لا تطلب بشيء من فعلك وجه الله عز وجل ، وأنك إن لم تقتل اليوم تمت غداً ، فانظر إذا أعطى الناس على قدر نياتهم ما نيتك ! ... أما والله لقد قاتلت صاحب هــذه الراية مع رسول الله ثلاثاً ، وهذه الرابعة ما هى بأبر ولا أتقى (عمار يهجم بمن معه ويقول لهاشم حامل الراية)

تقــدم يا هاشم ... الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت فى أطراف الأسل . وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين ؛ اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه

(يهجم عليه أبو غادية المزنى من أصحاب معاوية فيقتله)

أبو غادية — إليك أيها الرجل فأنا قاتله ...

عقبة بن عامر — بل أنا صاحبه . إليك إليكِ ... لى رأسه أحتزه بسيفي !

أبو غادية — فتذهب بها إلى معاوية ؟

(يقبل معاوية ومعه عمرو بن العاص)

عمرو بن العاص — والله إن يختصمان إلا فى النار !

(ينصرف الرجلان بعد تسليم الرأس)

معاوية — ما رأيت مثل ما صنعت ! قوم بذلوا أنفسهم دوننا تقول لهما إنكما تختصمان فى النار

عمرو — والله ذاك ! والله إنك لتعلمه ، ولوددت أنى مت قبل هذا بعشرين سنة .. لقد أسلم قبلى وقبلك ، وأوذي مالم نؤذ ، وأحبه رسول الله ، وحضر كل وقائع النبى ... وقال الرسول تقتله الفئة الباغية !

معاوية — ويك يا عمرو ! أنحن الذين قتلناه .. لقد قتله من أخرجه لهذا اليوم !

***

عليك السلام يا عمار ... ليت قوماً غير المسلمين قتلوك !

سعيد قطب

---

(١) الطبرى ج ٦



كتاب عن الصحارى المصرية

من الكتب التي استرعت الأنظار أخيراً في انكلترا وأمريكا كتاب صدر عن الصحارى المصرية بقلم الماجور جارفيس بك عنوانه : « صحراوات ثلاث » Three Deserts ؛ وقد كان جارفيس بك مدى ثمانية عشر عاماً حاكما إدارياً في الصحارى المصرية ، وكان إلى عامين حاكم محافظة سيناء ، ثم أقيل من الخدمة فيمن أقيل من الموظفين الانكليز ، وعكف على إخراج كتابه .

وقد درس جارفيس بك خلال خدمته الطويلة أحوال الصحاري المصرية من الوجهة الجغرافية والوجهة الاجتماعية ، ودرس اللغة العربية ولهجات البدو دراسة حسنة ، فكتابه ثمرة لدراسة مستفيضة . وهو يقص علينا تجاربه الأولى حينما أرسل إلى العامرية محافظاً للصحراء الغربية ليشرف على ضبط الأمن والنظام في منطقة صحراوية شاسعة يجهل خواصها وأحوال سكانها . ومن رأيه أنه خير لأهل هذه الواحات النائية أن يبقوا على حالهم من البداوة والتأخر ؛ وهو أيضاً خير لحكامهم ، وتزداد مهمة الحاكم صعوبة كلما تقدم هؤلاء البدو في المعرفة والتمدن . غير أنه قد أضحى من المستحيل اليوم أن تطبق هذه النظرية بعد أن تطورت طرق المواصلات السريعة ، وانتشرت الطيارة والراديو ، وخرجت الصحراء عن عزلتها القديمة ، وأضحت ترتبط بالعالم المتمدن . وهنا ينظر جارفيس بك إلى مهمته نظرة استعمارية ، فيحمل على مواطنيه الذين يضطلعون بمثل مهمته ، ويجهلون كيف تساس هذه المجتمعات المتأخرة ، وكيف تحشد تحت لواء المستعمر . على أن كتاب جارفيس بك يحتوي بالرغم من صبغته الاستعمارية على كثير من المعلومات القيمة ، وقد زين بكثير من الخرائط والرسوم

شاعر انكليزي كبير يحاضر بالقاهرة

دعت كلية الآداب بالجامعة المصرية الأستاذ لاسيل ابر كرومبي الشاعر الانكليزي الكبير لياتي بالقاهرة بعض محاضرات عن الشعر الانكليزي والشعراء الانكليزية وستبدأ هذه المحاضرات اليوم ١٣ ديسمبر بمحاضرة عن الشاعر « بن جونسون » ثم تعقبها محاضرات أخرى

والأستاذ ابر كرومبي من أعظم الشعراء والنقدة المعاصرين في الأدب الإنكليزي ؛ ويعتبر اليوم بعد وفاة توماس هاردي وكبلنج ودرنكواتر عميد الشعر الإنكليزي . وهو عضو في الأكاديميه البريطانية ؛ وقد شغل منصب الأستاذية في عدة من الجامعات الانكليزية الكبيرة مثل جامعة ليدز وجامعة لندن ، وموضوعه الشعر والشعراء . وهو يشغل اليوم في انكلترا نفس المكانة التي يشغلها زميله وقرينه الشاعر بول ڤاليري في فرنسا

وسيكون ضمن محاضراته أحاديث عن التجديد في الشعر الغنائي والتجديد في فن الدرامة ، وهما من الموضوعات التي اختص بدراستها وله فيها آراء جديرة بالتقدير

رينه دوميك

نعت أنباء باريس الأخيرة الكاتب الفرنسي الكبير رينه دوميك سكرتير الأكاديمية الفرنسية . وكان دوميك مدى ثلث قرن في طليعة الكتاب والصحفيين البارزين ؛ وقد بدأ حياته أستاذاً للأدب في كلية استانسلاس ، ثم عالج الكتابة في الصحف فلم يلبث أن ظهر بصفاء أسلوبه وقوة نقده . ولما تبوأ مركزه في الصحافة العالية ، اشتغل حيناً في جريدة « الديبا » ثم دعى إلى التحرير في مجلة العالمين الشهيرة Revue de deux Mondes وهنالك ظهر على صفحات هذه المجلة العظيمة إلى جانب زميله

وصديقه الكاتب الكبير چول لميتر . ولبث دوميك أعواماً طويلة يعمل فى أسرة مجلة العالمين ، وكان لجهوده أثر بارز فى تقدم هذه الصحيفة فى العصر الأخير . واستقر المطاف بدوميك أخيراً فى الأكاديمية الفرنسية حيث عين سكرتيراً دائماً لها . وهنالك بذل دوميك أيضاً جهوداً عظيمة فى تنظيم الأعمال العلمية والاجتماعية . واشتهر دوميك بأسلوبه الذى يغلب عليه طابع الدقة والتحقيق . وله عدة مؤلفات أدبية ونقدية أشهرها كتابه فى تاريخ الأدب الفرنسى

كتاب جديد عن مكتشف أمريكا

صدر أخيراً بالفرنسية كتاب جديد عن كريستوف كولمب مكتشف أمريكا عنوانه « سر كريستوف كولمب » Le Secret de Chr. Colomb بقلم الكاتبين شارل دى‌چافرى ورينه لى چانتى وفيه يحاول الكاتبان تمحيص جميع الأساطير التى ذاعت حول مولد كولمب وشخصيته وجنسيته ؛ ودحض المطاعن والروايات القاذفة التى ثارت حول أعماله في أواخر حياته وقد أسبغت هذه الروايات على سيرة المكتشف وعلى خلاله كثيراً من الريب ، وألقت على بطولته حجاباً كثيفاً . ويعترف الكاتبان أن بحثهما النقدى المستفيض لم يبدد كل غموض فى حياة المكتشف العظيم ، بيد أنه يلقى عليها كثيراً من الضياء الجديد

وفاة أديب عراقى فى القاهرة

توفى الأستاذ محمود السيد سكرتير مجلس النواب العراقى يوم الجمعة الماضى بمستشفى الروضة على أثر عملية جراحية خطيرة ظل ثلاثة أشهر يكابد غصصها بعيداً عن وطنه ، غريباً عن أهله حتى قضى نحبه المحتوم بين عناية أطبائه وعطف أصدقائه وقد أوصى وهو فى سياق الموت أن يدفن فى القاهرة . والأستاذ الشاب محمود السيد كان من السابقين الأولين فى ميدان الأقصوصة ، وقد بدأ شوطه فيها بداية حسنة ، وهو وتيمور وصاحب الحاصد البغدادية طلائع النهضة القصصية فى العالم العربى . رحمه الله رحمة واسعة وعزى فيه الشباب العراق خير العزاء

الرطانة واللغة الانجليزية

لما فتح العرب فارس والشام ومصر فشت الرطانة فى اللغة العربية . ونقصد بالرطانة ما أطلق عليه المؤرخون (اللحن) وقد آثرنا الرطانة لأنها أعم ، إذ اللحن لايعدو الخطأ فى الإعراب . وما حدث للغة العربية منذ ثلاثة عشر قرناً يحدث مثله اليوم للغة الانجليزية . فقد فشت فى آسيا الشرقية وجزر المحيط الهادى رطانة انجليزية أطلقوا عليها هذه اللفظة پدْچِنْ ، فقالوا Pidgin English ، وهي خليط من الانجليزية والصينية لايسر على الانجليزى أن يفهمها بعد أسابيع من إقامته هناك ... وقد فشت هذه الرطانة الانجليزية فى دور العلم والمعاهد الصينية ولاسيما فى هونج كونج التى تنفذ منها الثقافة الانجليزية إلى قلوب الصينيين ... ويحاول الانجليز جهدهم تخفيف هذه الرطانة ولكنهم لا يفلحون

باكونين

صدر فى انجلترا فى الأسبوع الفارط كتاب عن الفوضوى الروسى باكونين هو أكبر مؤلف فى غير الروسية عن هذا الرجل السياسى الخطر الذى يرجع إليه الفضل فى الحركة النهلستية التى أقضت مضجع القيصر وأقلقت بال حكومته ، والتى كمنت فى الشعب الروسى البائس ، لتنفجر فى هذه الثورة الجامحة الهدامة التى قام بها لنين وتروتسكي وأتباعهما ... ومؤلف الكتاب هو الأديب المؤرخ الانجليزى الكبير ا . ﻫ . كار ... وقد استطاع أن يلم بحياة المترجم إلماماً يثير الاعجاب ومن أحسن ما قال فيه : « فإن تكن جهود باكونين قد انتهت آخر الأمر إلى أيدى عصابة من الأبالسة ، فليس الذنب ذنب تعاليمه ، فالرجل كان ينشد لروسيا حرية وحكومة صالحة أمينة على مرافق الأمة ، لا حكومة جبارة حمراء ، تستمد حمرتها من الدماء الزكية التى تسفكها ... وقد كان باكونين غولاً ترتعد منه القيصر ، فلما فر الزعيم من وجهه إلى أوربا ناشد قياصرتها باسم المودة أن تقبض عليه وتبعث به إليه ... وقد فعلوا ... فقد قبض عليه فى درسدن وحوكم بتهمة التآمر على سلامة الدولة وحكم عليه بالإعدام ، وأرسلت به الحكومة إلى النمسا ، ولا ندرى لماذا ، فأيدت الحكم عليه بالاعدام محاكمها الامبراطورية ... ثم أرسل

من هناك إلى روسيا ، فصدر عليه نفس الحكم ؛ ثم خفف بالنفي إلى أصقاع سيبريا .. وقد ظل هناك بضع سنين ... وكتب إلى القيصر يستعطفه ويرجوه أن يمنح البلاد بعض الحقوق الدستورية ، ولكن القيصر سخر بكتابه ... غير أن باكونين فر من منفاه ، واستطاع أن يركب البحر إلى أمريكا ، ومنها إلى أوروبا ، ووصل إلى كوبنهاجن ، ولكن عيون القيصرية كانت تترصده ، فثنى عنانه إلى فرنسا ، واستقر فى ليون ، يعانى شظف العيش ويتجرع غصص الحياة ، حتى وافته منيته سنة ١٨٧٥ »

هذا وقد تأثر كبار أدباء الروس بتعاليم باكونين ، وفى مقدمتهم دستوتفسكى وتولستوى وترجنيف

تطور القصة البوليسية

تشغل القصة البوليسية اليوم أوسع مكان فى الأدب القصصى ، بل هى اليوم أحب أنواع القصص الشعبى ، وهى تستهوى الشباب بنوع خاص ، ومن ثم كانت العناية بتهذيبها وصقلها اليوم .

ويعتقد البعض خطأ أن القصة البوليسية حديثة العهد بين أنواع القصص ؛ والواقع أنها قديمة النشأة ، وتجد مادتها فى التاريخ بكثرة ، غير أنها اتخذت فى العصر الحديث صبغتها الفنية الجديدة ، وأصبح بطلها التقليدى رجلاً مغموراً لا اسرة له ، يستهويه بحث الغامض وتحقيق القضايا المعقدة ومطاردة الجناة البارعين فى التستر والتخفى . وقد كان هذا البطل فى البداية يقدم إلينا فى صور وصفات بغيضة ، أخصها القسوة والخشونة وحب التنكيل والتشفى ؛ وفى مثل هذه الصورة يبدو لنا « جافير » أحد أبطال قصة «البؤساء» لفكتور هوجو ؛ ولكن هذه النزعة تطورت فى العصر الأخير تطوراً ظاهراً ، وغدا بطل الرواية البوليسية شخصاً محبوباً يتصف بالتواضع والبراعة والخلال الحسنة ، ومحب الخير ، ولا يقسو إلا على المجرمين العابثين . وكان أول من قدم إلينا هذا النوع من الأبطال الكاتب الفرنسى « أميل جابوريو » ، وهو بلا مراء أعظم كتاب القصة البوليسية فى فرنسا ؛ وتلاه بعد ذلك جمهرة من الكتاب البارعين أضحت أبطالهم البوليسية شخصيات محبوبة تثير الإعجاب . ومن هؤلاء السير كونان دويل مبتكر شخصية شرلوك هولمز ؛ وبوتسون دى تيراى مبتكر شخصية روكامبول اللص البارع والبوليس المدهش معا ؛ وموريس لبلان مبتكر شخصية ارسين لوبان وغريمه الشرطى جانيار ، وغيرهم . وتتجه القصة البوليسية اليوم إلى نوع من القصص التهذيبى المفيد بعد أن ظهر أنها أحب أنواع القصص إلى الشباب .

(بقية المنشور على صفحة ٢٠٠٢)

وهذه أمور يختلف فيها النظر وليست من قواعد الأخلاق . فقل فيها ما يهديك إليه النظر الصائب . ورأيى أن التواضع محمود ما لم يكن ذلة ، والقناعة حميدة بقدر ما تحول بين الإنسان وبين الشره والاستكلاب . فإن كانت ضعفاً فى الهمة وعجزاً عن الإدراك فهى رذيلة . وكذلك الزهد . وأما التوكل فإن يكن استكانة للحادثات ، وخنوعاً لكل ما هو آت ، فلا يرضاه إنسان ؛ وإن كان ثقة بالنفس وانطلاقاً فى سبل الحياة لا ترده دون غايته المشاق والأهوال فما أحوج الناس إليه

يا أخى : قد أساء العجز والذل تأويل هذه الأمور . وأنت تعرف أن المثل الأعلى للرجل المسلم أن يكون طامحاً إلى أبعد غايته ، واثقاً بنفسه إلى غير نهاية ، حرًّا لا يقر بعبودية ، أبياً لا يقيم على دنيّة ؛ يرى نفسه قائماً فى هذا العالم بالقسط قد وكل الله إليه تصريف الأمور وتقسيم الأرزاق ، والهيمنة على الأخلاق . وأين هذا مما فهمه الناس من التواضع والتوكل . الخ

وأما الربا فلا يتسع المقام للكلام فيه . وحسبك هذه الثورات الثائرة حوله ، والمعارك الهائجة فيه بين البلشفية والرأسمالية

وأما قياس الأخلاق بالنفع والضر فقد ذهب إليه بعض علماء الأخلاق ، ولكنْ مذهباً ينتهى إلى منفعة الجماعة وضررها لا منفعة الفرد وضرره . ولن تقوم لأمة قائمة إن جعلت مقياس أخلاقها نزوات كل إنسان ونزغات كل فرد

وبعد فيا صديقى أرانى حدت عن الموضوع الأول استطراداً معك ، فأرجع إلى محمود أحمده على ثورته مخطئاً ، وأذمه على هدوئه مصيباً . فقد تمثل لى فى الأولى حرًّا ثائراً يريد أن يقلب نظام الأخلاق فى الأمة ، وتمثل لى فى الثانية تُكلة نِكساً مبطاناً لم يدع على المائدة فتاتاً ، ولم تدع فيه المائدة بقية لهمة أو عزيمة أو ثورة . فرحمه الله جوعان ثائراً ، وأخزاه الله شبعان خائراً

عبد الوهاب عزام

الكتب

قصة معمل الذهب

القصة الثالثة عشرة من القصص المدرسية

للأساتذة : سعيد العريان ، أمين دويدار ، محمود زهران

للأستاذ أبو الفتوح محمد التوانسي

عنوان القصة الجديدة من القصص المدرسية ، وهي أولى المجموعة الثالثة من هذا القصص الرفيع ، فماذا يوحي هذا العنوان الطريف العجيب الذي يثير الرغبة ويهيج الشوق ؟

لا شك عندي أن الطفل سيسر حين يطالع قصته ، وسيغرق في الضحك حين يعلم أمر الأب توت مع الشقي حابي ، وسيدفعه هذا وذاك إلى إدراك جمال القصة ، وقريب من أذهان الطفولة تلك الأسمار الشائعة التي لا يزال يرويها عامة القصاص في القرية من حكايات العفاريت التي يتخللها كثير من صور المسخ والتقمص . وفي اعتقادي أن هذا أثر عريق من آثار مصر القديمة في عهدها الأسطوري لا زال عالقاً بالأذهان ، رغم تقادم الحقب وامتداد الزمن ؛ فالشراب الذي يحيل الحيوان الناطق إلى حيوان نكير الصوت شبيه بالكيمياء الذهبية ، وتلك خرافة قديمة

وما زالت الخرافة عند الشعوب منشأ الفلسفات والأديان ؛ فالقصة التي تصوغ الحقيقة الواقعة في أسلوب خرافي هي أدنى إلى منازع الطفولة ، وقصة معمل الذهب تقوم على فكرة من هذه الفكر التي تنتهي حتماً إلى غرض تهذيبي ، وإذا فماذا يفهم الطفل من قصته الجديدة ؟ سيعرف بلا ريب أن السرقة التي حرمتها الأديان لا تليق بكرامته ، لأن مصيره ربما كان كمصير اللص حابي ومن لف لفه

فإذا انتقلنا من هذا العرض الموجز ألفينا في القصة أسلوباً قصصياً بارعاً ، نسج برده طبع قصصي ، فهو يملك سمع الطفل ويحرك فيه شهوة القراءة ، ثم يمنحه زاداً لغوياً نافعاً ويسوقه في رفق إلى تذوق التعابير الصحيحة التي هي الغاية من تعليم اللغة . فقصة معمل الذهب وشقيقاتها السابقات طريق سهل واضح المسالك إلى تعليم الإنشاء العربي . وما تزال طريقة هذا الفن في مدارسنا في حاجة إلى التجويد ، وإن تكن قد بلغت منزلة مشكورة من الإجادة الفنية في حسن الاختيار والتصرف والشرح . والأمر في قبضة المعلم الحازم الذي يولد من القصة موضوعات شائقة في الإنشاء . وما أحب هذا النوع من الكتابة الفنية لدى الأطفال والناشئين من تلاميذنا ! ومما يرفع من شأن القصص المدرسية في جملتها وعنايتها الصادقة بتصحيح التراكيب والمفردات التي كان يظن أنها في فسولة العامية ، وليس هذا بالأمر الهين فهو مما يحتاج إلى جهود متضافرة ، واطلاع شامل ، وخبرة تامة بأساليب اللغة العامية أما الخيال في هذه القصة وفيما سبقها فبعيد مداه ، ليس له أفق محدود ، وهذا العنصر من عناصر القصة متى أجاده المؤلف وواتاه فيه الطبع أكسب القصة سحراً وتأثيراً

هذا وقد بلغ التحليل النفسي الغاية في دقة الوصف ، وأثر ذلك واضح في تصوير بطلي القصة الأب توت ، ذلك الحكيم الكيماوي ، وحابي الأثيم الذي كم ذاق صنوفاً من الشقاء . وقد أصاب مؤلفو القصص المدرسية في هذه الناحية توفيقاً كبيراً يدل على قدرة عجيبة في فهم طبائع الأشخاص ، ودراسة ممحصة لأحوال البيئة المصرية ، تجد ذلك في العرض الدقيق في سائر القصص للعادات والتقاليد والأوضاع الاجتماعية في بيئتنا ، مع صدق في اللهجة ، وجمال في الفن ، وبساطة في التعبير ، وابتكار متجدد ، فتلك جريدة التلميذ الملحقة بقصتنا الجديدة نوع مستحدث ومستطرف يرمي إلى غرس الملكات الأدبية في نفوس الناشئين

وكل ذلك مما يجعل القصص المدرسية مورداً عذباً لدراسة عقلية نافعة ، ومثلا عليا للتلميذ تحببه إلى الفضيلة وتعمل على رفع مستواه الخلقي ، وتشحذ من عزيمته ، وتقوي من استقلاله الفكري

وبعد فماذا في تلك القصص ؟ إنها مجهود أدبي في أدب الطفل يسير في طريق تحقيق الغاية من إيجاد الأدب القوي الذي يجمع بين الموروث عند العرب في الثقافة اللغوية ، وبين موضوعات البيئة التي نعيش فيها

فإلى من يهتمون باللغة القومية في العهد الجديد من المسئولين وغيرهم نوجه الحديث ، فإن في تشجيع ذلك المجهود شداً لأزر الفصحى في المدارس .

(الجيزة) أبو الفتوح محمد التوانسي

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي رقم ٧